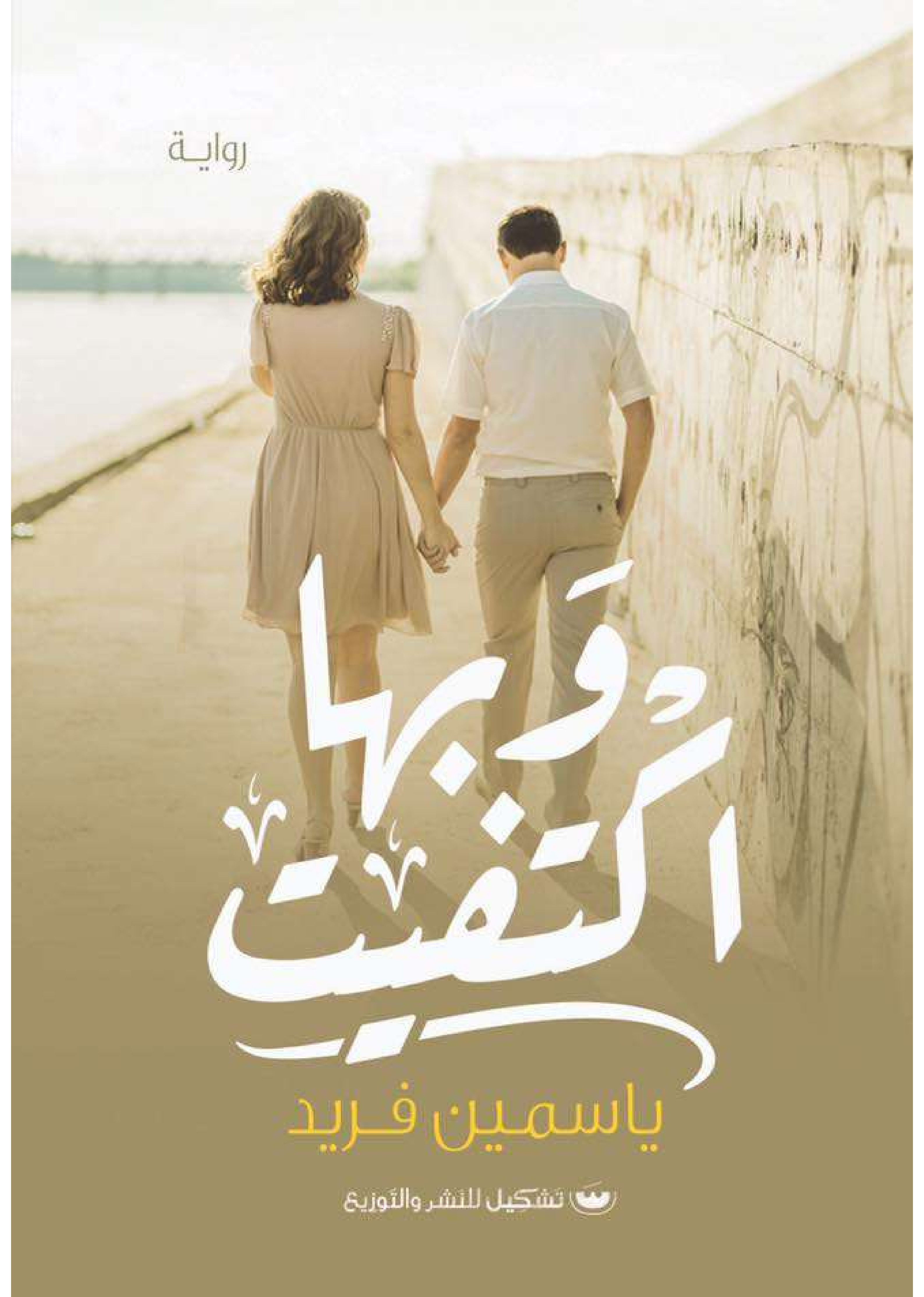

رواية
وربما التقيت
ياسمين فريد
تشكيل للنشر والتوزيع

وبها اكتفيت

رواية

ياسمين فريد



Email publish@tashkeel- publishing.com
Website www.tashkeel-publishing.com
Mobile 201006250473 FB/Tashkeeel

I.S.B.N : 978-977-6555--98-5

رقـم الإيــداع: 2247/ 2019

تصميم الغـلاف : أحمد فرج

المراجعة اللغوية: محمد عبد القادر

الإخراج الفنـــي : ضياء فريد

المـديـــر العــام : سيد شعبان

إهداء

إلى من أفلتوا أيدينا في مُنتصف الطريق وربما بدايته..

ليتكم أحببتونا كما أحببناكم!!

من أنا؟

ومن أكون لهذا العالم؟

العالم كبير، وما أنا إلا «**نقطة باهتة**»

في «**جدارٍ ضخم**» مليء بالرسومات الصاخبة.

الكاتبة



ربما كان الحب الكبير هو الحب غير المتبادَل..
أن تحب يعني أن تتألم..
أن تكون محبوبًا يعني أن تُسبِّب الألم.

مارسيل بروست



كانت هشة من الداخل، هشة إلى الحد الذي ظنت به أنها ستقع بغرام أول من يُخبرها بحبه، لكن قلبها أراد أن يسلك الطريق الصعب دون أن يمنحها حق الاختيار، فأدركت مع الوقت أنه لا قيمة للحب دون عذابه، وكلما كان الحب مؤلمًا كلما استمر أكثر، داهمها حُبًا لا يشبهها، حب لا يعرف الرحمة، ظلت تقاومه مرات ومرات قبل أن تنهار، هذا الحُب الذي يُشبه نغمة فريدة يُطلقها عازف لا يكترث، النغمة هي تلك الحالة التي نحياها، والعازف هو القدر، يعزف متى يشاء فتبدأ القصص، يتوقف عن العزف، فتنتهي القصص.

المسرح كبير، المقاعد مُمتلئة، يُرفع الستار، يدخل العازف، يبدأ البيانو بهدوءٍ، تجمعنا الصُدف وتلتقي الأرواح، نسمعه بشرودٍ، تقترب الأيادي، نهمس ونعترف، يتوقف البانيو، يبدأ الجيتار

بحماسةٍ، تعلو النغمات، نتجرأ ونتصارح، تتشابك الأيادي بقوة، نصير نفس الكيان، نرقص ونغني ونطير، يتوقف الجيتار فجأة، يبدأ الناي بشجنه، تقترب يد وتبتعد الأخرى، تنفلت الأيادي، نصير كالأغراب، ننهار ونشتاق، يتوقف الناي، يُصفق العازف لنفسه ثُم يرحل نحو مسرح آخر ومقطوعات أخرى، يُسدل الستار، تنتهي العلاقات ولم تكتمل.

شاهدته كنجم وحيد يلمع في سماءٍ صماء، كرجل ليس له شبيه، وكأن الأرض لم تنجب غيره، شاهدها كقطعة أثرية لا قيمة لها في زمن لا يُقدر الأثر، أو كوردة بالية مُلقاة في غير مكانها، هذا الحب الذي كان لها كعقاب على ذنب لم ترتكبه، أو كبندول ساعة يدق بعدد الثواني ليشق قلبها نصفين وتتذكره.

أخبرها قبل الحين أنه رجل سيء السُمعة وأنها فتاة صالحة، لا تعلم لماذا أخبرها بحقيقته إلى هذه الدرجة، ربما ليقنعها أنهما على خطين لا يلتقيان أبدًا، أو ربما ليقنعها أنهما غير مُتشابهين، أو ربما ليقنعها بأسلوبٍ صريح أن تفيق من وهم لا مجال لتحقيقه معه، لكنها أكملت وكانت في الحُب والحياة مُجبرة.

وهُنا.. يبدأ العازف!!



مرت الليلة السوداء ومرت بعدها ليالٍ أشد سوادًا، وما زالت يُسر تنتظر الغائبَين، تنتظر برجاء دون جدوى، هبت الريح تقسو على هدوء المكان، واجتاح البردُ جسدَها النحيلَ، الذي زهد الطعام والشراب منذ وقت، شدت غطاءً صغيرًا من الصوف وأرخته على كتفها وتدثرت به، وبينما كانت تحاول النوم كي تُخمد أوجاعَها قليلًا، سمعت طرقاتٍ خافتة، فتحت عينيها مُهرولةً نحو الباب، فكأنه حلمٌ راودها، بطلتُه كانت ابنتَها.

كان الطارق رجلًا ثلاثينيًّا، يصطنع الحزنُ، أراد أن يؤنس وحدة الأم ولو قليلًا، ويتعرف أكثر على ابنتها كموضوع لحلقة في برنامجه الشهير.

قال في ألم مُفتعل:

ـ أتمنى ًانك تكوني بخير يا أمي.

لم تُقاوم يُسر دموعها، وكأنَّ هذا الرجل ذكَّرها بشيءٍ لم تنسَه.

ـ أنا آسف لو كنت جيت في وقت غير مُناسب.

ـ أتفضل يا ابني.

دخل «**نجم الدين**» البيت وحينها شعر بانقباضه بقلبه وكأنه دخل كهف ضيق، فطلب من الأم أن تصنع له فنجانًا من القهوة، وتجوَّل في المكان بطمأنينة من أمره.. المنزل بسيط، يدل على بساطة أهله، الصالة تحوي أريكتين مُتوسطتي الحجم، وسُفرة لها أربعة مقاعد، عليها آنية من فُخار بها زهور ذابلة، وهُناك على منضدة صغيرة تلفاز مُغطَّى بقطعة سوداء من القُماش، مُعلق أعلاه على الحائط صورة لشاب عشريني يشقها شريط أسود، جميع الغُرف مفتوحة الأبواب، عدا غُرفة واحدة، دفعه فضوله إلى اختراق بابها.. فتحها من دون مُفتاح، ودلف نحوها، انتابته قشعريرة عندما لمح صورة «**زينب**» أمامه على الحائط، فعلم أنها الغُرفة الخاصة بها، فأخذته الدهشة من هذه الفتاة وتصرفها الأحمق.

نجم الدين يكتُب تقريره ويستعين بكاميرا صغيرة للتصوير والتوثيق.

المكان: غُرفة «**زينب**».

الحدث: التحقيق في قضية «**زينب إبراهيم المصري**».

الغُرفة مُنمقة الأثاث، تغلب عليها الألوان القاتمة، تضج خزانة ملابسها بالبناطيل والقمصان التي تُخالف طبيعتها الأنثوية، وأربعة فساتين فقط، ألوانها: أسود وأحمر وأبيض وأخضر، بترتيب وضعيتها.. الفستان الأبيض يبدو أنه فُستان زفافها، عشرات من نظارات الشمس مُلقاة هُنا وهُناك، هُنا على مكتبها الخاص: تلفاز صغير وراديو وحاسوب شخصي، وكُتُب متباينة الأنواع، وإن كان أغلبها رومانسي الطابع، أو تتحدث عن التاريخ، والجدار الذي يحوي النافذة الوحيدة للغرفة، يضج بالصور الفوتوغرافية؛ كصورتها وهي تنفث دخان سيجارة بشراهة، ولم أرها بحياتي تُدخن، وصورة وهي نصف عارية، ولم أرَها يومًا تكشف حتى عن جُزءٍ من ذراعها، وصورة لها وهي تُطعم الأسد، على الرغم من رقتها المُتناهية، وصورة لها بين القطط السوداء، على الرغم من براءة ملامحها، وصورة لها وسط زحام المارة في مترو الأنفاق، على الرغم أنني كُنت ألمحها وحيدة دائمًا.. مُتناقضة أنتِ يا «**زينب**».

استدار «**نجم الدين**» خلفه، فكانت دهشته وحيرته، ولسان حاله يتساءل:

ـ ايه اللي انا شايفه دا فوق سريرها؟ يا ترى ليه حاطه صورتي هنا وبحجم كبير كمان؟ عجيب أمرك يا زينب!!

ثم لمح «**نجم الدين**» كُرسيًّا بثلاث أرجل دون رابعه، فبدأ يُمرر أطراف أصابعه عليه كأنه يستحضر موقف ما في خياله، وصار قلبه يخفق بشدة عندما خُيِّل إليه شيء لا يُحتمل، أبعد يده فجأة عن الكرسي؛ فلم يعُد يقاوم مُطاردة أفكاره وخيالاته المُريبة لجسده المُرتعش، ثُم لمح أجندة حمراء كبيرة مُلقاةً على الأرض، مد يده وفتح صفحتها الأخيرة، وبقراءة سريعة أدرك أن الذي بين يديه مذكراتها الشخصية التي كانت تسجِّل فيها كُل ما مر عليها من أحداث.. وحينها، سكن الفضولُ عقلَ نجم الدين لمعرفة المزيد عنها والخوض أكثر في تفاصيل حياتها؛ كي يتمكن من حل لغزها ومعرفة سرها الأكبر.

انتفض نجم الدين عندما دخلت يُسر الغُرفة فجأةً عليه، فوقعت الأجندة من يده، فأخذها ثانية وحاول أن يُلملم نفسه ويُهدِّئ من أنفاسه، تقدمت نحوه وربتت على كتفه وقالت بطمأنينة:

ـ تفضَّل القهوة يا بُني.

ـ شُكرًا ليكِ يا أمي.. أستأذنك آخد الأجندة دي معايا؟

ـ طيب يا ابني.. لكن ليّا عندك طلبين، الأول: محدش يقرا اللي فيها غيرك، وتاني حاجة: ترجعها لي بسرعة..

سألها «**نجم الدين**» بدهشةٍ:

ـ أنتِ تعرفيني يا أمي؟

نظرت إلى صورته المعلقة فوق فراش ابنتها وقالت:

ـ **نتكلم بعدين لما تيجي ترجع الأجندة.. في انتظارك!!**

قدَّم «**نجم الدين**» طلب إجازة من عمله بحجة مرضه المُفاجئ، وافق «**نجيب صُبحي**» مُدير قناة «**الحقيقة**» على طلبه، وفي الصباح أعد حقيبة سفر صغيرة واستقل سيارته متوجهًا إلى رأس البر، حيث الشاليه الخاص به، والمطل على البحر، الذي اشتراه مُنذ عامين للراحة وقضاء عُطلته السنوية، لكن تلك المرة لم يكن ذهابه لهذا السبب.

أمر نجيب صبحي «**جبريل**»، مُخرج برنامج «**الحقيقة في عيون الشعب**» الذي يُقدمه «**نجم الدين**»، بالتوقف عن بث هذا البرنامج لحين استعادة زميله صحته، قلق «**جبريل**» على صديقه شريك طريق الكفاح من بدايته، اتصل به على جميع أرقام هواتفه، فلم يرد عليه.. وفي اليوم التالي، وجد كُل هواتفه مُغلقة، انتابه القلق أكثر.

ذهب «**جبريل**» إلي بيت نجم الدين وقابل «**ناريمان نجيب صُبحي**»، وسألها عن زوجها، فأخبرته أنها **لا تعلم** مكانه، لكنها رأته صباح البارحة يرتب حقيبة سفره بعدما أخبرها كذبًا أنه سيزور أحد أصدقائه القدامى في دمياط، ثم نظرت باستعلاء وقالت بِكبرٍ:

ـ **أول ما تلاقي صاحبك مع عشيقته، أبقى بلغه إني قاعده عند بابا.**

كان نجم الدين بالفعل يعشق النساء، واكتشفت زوجته خيانته لها مرات ومرات لدرجة انها كانت تسمع مُحادثاته معهن في منتصف الليل، ويغيب عن البيت بالأيام بحجة العمل وبحجج أخرى وهي تعلم انه على موعد غرامي مع صنف جديد من المُغرمات به.

اعتادت «**ناريمان**» على هذا الوضع بالتدريج، وصارت علاقتها مع زوجها علاقة مصالح مشتركة فقط لها أبعاد مادية، وأصبح «**جبريل**» هو الآخر في إجازة بطبيعة عمله مع «**نجم الدين**»؛ فلا مُخرج لبرنامج من دون مُقدِّم، وتذكَّر عندما أخبره صديقه، حين فضفضة، أن أقرب الأماكن إلى قلبه «**رأس البر**»، فهناك يشعر براحته وحُريته بلا زوجة مُتسلطة ولا نساء مُنحلات كُل ذنبهم أنهم وقعن في غرامه فسلمن له أجسادهن بكامل ارادتهن، فلم يتردد «**جبريل**» لحظة واستقل سيارته حيث مكان صديقه.

وصل «**جبريل**» إلى الشاليه الخاص بنجم الدين مع غروب الشمس وطرق بابه، فلم يجد استجابة لطرقاته، لكنه وجد نوافذه مفتوحة، اطمأن قلبه وتيقَّن أن صديقه بالقرب منه، فنظر حوله ووجده يجلس على مقعدٍ هزاز، يرتدي معطفًا أسودَ من الصوف الثقيل، وقفازين من الجلد العريض، فما زال البرد يجتاح شواطئ دمياط، وفي يديه عُلبة سجائره وأجندة كبيرة حمراء، ركض نحوه، وعندما اقترب منه وقف خلفه وقال مازحًا:

- بتكذب يا عمنا وتدَّعي المرض وأنت هُنا في صُحبة البحر والرمال وأجندتك الحمرا؟!

توجَّس «**نجم الدين**» خيفةً وقال:

- في حد عرف مكاني هنا غيرك يا جبريل؟

- لا متقلقش يا نجم.. مفيش حد غيري عرف إنك هنا، وناريمان بلغتني أقولك أول ما أقابلك.. انها مستنياك في بيت أهلها، هو في مشكلة حصلت بينكم يا صاحبي؟

فأجابه نجم على مضض:

- لا يا جبريل.. مفيش أي مُشكلة بيني وبينها، أنا بس محتاج أقعد لوحدي شوية بعيد عن دوشة الشُغل والناس وناريمان.

ضحك الصديق وقال:

- وطبعًا بعيد عن دوشة مُعجباتك يا دنجوان عصرك وزمانك.

رد عليه نجم بعينين شاردتين نحو البحر الكبير:

- عارف يا جبريل.. بالرغم من كُتر مُعجباتي زي ما بتقول، لكن ولا واحده منهم قدرت تخطفني، كُلهم شبه بعض، مفيش واحده لقيتها مُختلفة، كلهم فاضيين من جوّا، كلهم هوا.. هوا يا جبريل!!

عاد الصديق للضحك:

ـ شكلك كبرت وهتعقل يا صاحبي بعد العُمر دا.

سكت نجم عن الرد على صديقه ليخبره بسكوته أن وقت الحوار قد انتهى معه هذه الليلة، فأراد جبريل أن يمنح صديقه فرصة انفراده مع نفسه كما يُريد فتحدث قائلًا:

فين مُفتاح الشاليه يا نجم؟ محتاج أريّح جسمي من الطريق وأنام.

أخرج نجم الدين المُفتاح من جيب معطفه كي يُلبي طلب صديقه، وأخذ جبريل المُفتاح وقال مازحًا:

ـ أتمنى لك ليلة سعيدة مع صاحبة الأجندة الحمرا يا صاحبي.

أومأ نجم الدين برأسه مع ابتسامة باهتة، وتتبع خطوات صديقه، وظل يرقبه بعينيه حتى اطمأن إلى أنه دخل الشاليه، ثُم أشعل السيجارة الأولى من صندوق سجائره الفضي الذي أهدته إليه إحداهن مع رسالة من بضع كلمات قد حُفرت به من الداخل، كُتب بها» لم يكُن وصلك إلا حلمًا، فحينما يأتيني الموت: سأموت على حبك» وتركت صاحبة هذه الكلمات هديتها على مكتبه ليتفاجأ بها في صباح يوم ميلاده السابق مع ذكر أول حروف من اسمها «**ز..إ**»

فتح نجم الدين الصفحة الأولى من الأجندة التي يحتضنها بين يديه، وحينها رأى وجه زينب البريء مرسومًا أمامه على الورق، تتطلع إلى نظراته نحوها بشوق ولهفة، وصوتها في أذنيه تقص له كُل تفاصيلها، ومن السطر الأول بدأ نجم الدين يسمعها وبدأت إليه زينب تتحدث.



كُنت دومًا أستعجل النجاح؛ فبعد تخرجي من الجامعة بشهر واحد، عملت في إحدى الصُحف الحكومية التي أعلنت عن حاجتها لصحفيين ومصورين حديثي التخرج، قدمت أوراقي وشهاداتي برفقة صديقي «**علاء**» وصديقتي «**سمر**» وآخرين من زملاء الدراسة، وبقليل من الوساطة من قِبَل عم «**علاء**»، الذي كان صديق رئيس التحرير، تم قبولنا بالعمل، وكان الحظ حليفنا، قضينا سنوات الدراسة معًا، والآن سنكمل طريقنا بالعمل معًا.

كانت الحياة العملية مُبهجة كأي بداية لها طابع البهجة قبل التمادي في الأمر أكثر، لتزول بهجة الأشياء بالتدريج وتنطفئ روحها، وكان في داخلي صوت عاصف سيسطره حبري بعد أعوام من الصمتِ، أخيرًا سأطلق عنان المُشاكسة الحُرة من سلاح القلم الصادق بعدما ألبسه ثوب الجرأة ولن أُخضِع له كلمةً أو حتى حرفًا.

وفي أول اجتماع لرئيس التحرير، كانت طامتي الكُبرى عندما أملى على مسامعي قائمة عريضة من الممنوعات على أنها ضوابط العمل، وأهم ما في هذه القائمة: أن حُرية الرأي مكفولة فقط للكبار.

لم أعبأ بالأمر، فكتبت كُل ما أراه بعيني من حولي، كتبت عن الظلم المادي والمعنوي، كتبت عن حوادث الطرق، كتبت عن الفقر والجهل والمرض، كتبت عن إخفاقات الزعماء، كتبت عن الثورات الحقيقية والمزعومة، وعن مكانة الوطن، كيف كانت وماذا صارت؟ وعن ارتفاع الأسعار مُقارنةً بالرواتب، كتبتُ عن خريجي الجامعات الذين يقضون نهارهم على المقاهي ورائحة انتظارهم قد فاحت، كتبت عن تعليم المرأة في القُرى وحقها المهضوم مقارنةً بنساء المدينة، كتبت عن ضعف تجهيزات المصحات وقلة عدد الأسرَّة وتفشِّي الأمراض، كتبت عن ضرب السياحة.. كتبتُ وكتبتُ، لكن كل ما كتبته كان مصيره سلة القمامة، فكيف لي أن أتكلم ونحن في زمن الخرس العام، والمتحدث هو الذي يلقي بيده للتهلكة وهو المُذنب الأول والأخير في حق نفسه؟! فالقلم قد كُسر عظامه وجف مداده.

مُنِعَتْ كُل تقاريري الصحفية من النشر، حتى صدر أمر بنقلي من قسم التحقيقات إلى قسم التصوير، أبكاني هذا القرار؛ فمعه حُكِم على قلمي بالإعدام شنقًا وهو ما زال في يدي يصرخ بالحق.

حاولت أن أقنع نفسي بالعمل الجديد وأن للكاميرا عيونًا تكشف عن الواقع كالقلم؛ فالكاميرا ترى والقلم يتكلم، اتخذتُ من هذه الآلة الصغيرة مدفعًا؛ فهم حقًّا نجحوا في إسكات القول لكنهم لن يفلحوا في حجب الرؤية، وفي الاجتماع الأسبوعي للجريدة، قال رئيس التحرير:

ـ سيكون لكِ يا «**زينب**» شأن كبير في المُستقبل.

قلت بملء فمي من دون تردد أو تفكير:

ـ لكن أنتَ ظالم!

اندهشَ لقولي ونظر نحو التقارير الصحفية التي تتوسط الطاولة كي يُخفي حُمرة وجهه من الزملاء الحاضرين، ثم أكملت:

ـ هو مش اللي بيخرس صوت القلم يبقى ظالمٍ؟

قال وكأنه يخاف عليّ:

ـ انا شوفتك زي بنتي، عشان كدا خوفت عليكِ من اندفاعك يا زينب.

ـ والدي عُمره ما كان ديكتاتور في يوم من الأيام، ومحدش هيقدر يمنع صوتي مهما كان التمن.

ـ طيب لو كان التمن عُمرك يا زينب؟

ـ هقدمه من غير تفكير.. ايه قيمة الحياة في عالم مش بيقدِّر الحرية ويحجُر على الرأي والفكر؟

ابتسم بريبة ونظر إليَّ نظرة استخفاف وقال، والغضب يقفز من عينيه ويهز كيانه:

ـ لو كلمتيني تاني مرة بالنبرة دي، هوقفك عن العمل.

لم أتراجع لبرهة عن كل ما تفوَّهت به، وقلت واثقة:

ـ تفتكر إني هموت من الجوع؟ موت الصوت وصاحبه حيٌّ أصعب بكتير من الموت واحنا جياع البطون.



كانت في داخلي رغبة قوية في لقائه تلك الليلة، رغبة تجتاح أعماقي، وتملأ رأسي، وتُذيب كل العوائق، فصرت أردد: «**لا بدَّ أن أراه**»، هذا كان هاجسي الأكبر وإليه كُل يقيني.

مضيتُ كالفراشة الضالة، أشق طريقي وأسابق الريح، أستعجل عقارب الساعة، القطار مكتظ بركابه، منهم النائم ومنهم الشارد، ومنهم من يأكل ويشرب ولا يبالي، كنت أعد أعمدة الإنارة، وأتابع غروب الشمس عبر نافذتي، يتسلل القمر نحو الأفق البعيد، يداعب الشمس برفق ليقنعها بالرحيل، والشمس تختفي على استحياء؛ فلقد أدت مهمتها بمهارة، وحان وقت راحتها لساعات قليلة كي تواصل شروقها النهار المُقبل، فلا القمر دائم ولا الشمس، أتطلع إلى الطريق، على الرغم من تكرار المشهد نفسه أمامي، إلا أنني لو مكثت طيلة عمري هكذا لن أملَّ؛ فمنظر الطريق يسرق عينيَّ دومًا، ومن حينٍ لآخر أُخرج مرآتي الصغيرة

من حقيبتي، أتطلَّع إلى ملامحي، التعب يكسو وجهي، لكن لا بأس، سأكمل طريق سفري.

كان يجلس بجانبي شاب ثلاثيني أشقر، له لحية خفيفة وبلا شارب، يضج وجهه بنور غريب وكأنه ملاك في ثوب بشر، يرتدي بذلة رمادية، مُنهمك في قراءة كتاب ما بيده، يبدو أنه غير مصري، وتأكدت من هذا عندما تحدثَ عبر هاتفه بلغة غير مفهومة، أردت سؤاله عن الوقت المُتبقي على وصولنا إلى الإسكندرية، لكن خجلي منعني، تبًّا له من خجلٍ يُعرقل كل ما أريد.

وبعد مُضيِّ أكثر من ثلاث ساعات، لمحت لافتة مكتوبًا عليها «**مرحبًا بكم في الإسكندرية**»، وحينها رأيتُ أضواء المدينة الساحرة تنعكس على زجاج نافذتي، رقصت جوارحي، وأحسست بسريان الدم في أوردتي بسرعة، وصار القطار يلتهم الطريق بشراهة أكبر.

تجرأتُ وسألتُ الشاب الوسيم:

- بتقرا ايه؟

أجابني باللغة العربية الفصحى:

- كتاب عن سيرة الرسول محمد ﷺ.

وبدأتِ الأسئلةُ تنساب من فمي، والفضول تتسع رقعته؛ فهذه أنا عندما أكون سعيدة، أصبح كالمرأة الثرثارة التي تتحدث فيما لا يعنيها أكثر مما يعنيها، فنَمت داخلي رغبة للحديث عن أي

شيء وكُل شيء.. وعلى العكس، عندما تنتابني لحظات تعسة، لا أتحدث مع أحد حتى أقرب الناس، وأمكث مع حالي لفترة من الزمن، عُدت إلى فضولي وقلت بالفصحى مثله:

ـ ما جنسيتك؟

ـ فرنسي.

ـ زيارتك للإسكندرية للعمل أم للتنزه؟

ـ هذا وذاك.

وان كان سألني نفس سؤالي الأخير لقلت:

ـ عشان أسرق من الزمن لحظات سعيدة أعيشها دلوقتي وافتكرها بُكرة.

توقف القطار وتوقف قلبي معه للحظة، ثم عاد يخفق بشدة، وهبطت درجته الوحيدة، وبحثت لوهلة عن هذا الفرنسي الوسيم، لكن الأرض قد ابتلعته، لن أبالي باختفائه؛ فلقد اعتدت على التعارف والفراق من أناس كانوا لي بمثابة الهواء الذي أتنفسه، فلِمَ أحزن على من قاسمني سكة سفري لساعات قليلة؟! دعني منه الآن، لا بدَّ أن أصل إلى المؤتمر السنوي، لا بدَّ أن ألتقط صورًا لهذا الحدث، يا كذبتي! بالأحرى، سأركِّز عين كاميرتي على «**نجم الدين كامل**» وكأنني أمارس مهنتي، وفي الحقيقة كي أروي عينيَّ العطشانتين لرؤياه.

استقللت أحد التاكسيات الداخلية للمدينة، حيث شوارعها المُبهجة.. وكعادتي جلست بجانب النافذة، أتطلَّع نحو البحر الممتد على جانب الطريق، ورائحته في أنفي تصيبني بالهذيان الجميل، وكأنني ابتلعت برميلًا من نبيذ السعادة جرعةً واحدة، وصار عقلي يرقص مع موجات البحر، وكأنني أركض في مكاني، الطبيعة تبتسم، وأصبحت الأشياء كُلها بروحِ طفلٍ وليد، لم يعرف للدُنيا أي هموم، أقسم إني في الجنة!

قلت لنفسي:

ـ ايه اللي حصل يا زينب لكُل الفرحة دي؟

ثُم تمهلتُ بعدما انتابتني قشعريرة خوف من انطفاء فرحتي، وشيخوخة الطفل الوليد، ورحيل أرواح الأشياء بعيدًا.. وبعد مضي أقل من نصف ساعة، ردد السائق بصوتٍ جهوري أعلى من صوت تلك الأغنية الصاخبة التي تصرخ بها عربته:

ـ هنا شارع محمد نجيب.

وضعت قدمي على أرض الجنة ثانية، وما زالت عيناي في حالة تأمل وترقب، وعلى شفتيَّ ابتسامة من دون سبب ظاهري، فكُل الأسباب منبعها الداخل، وبعد سؤال أحد المارة، وصلت إلى مكان المؤتمر، ودلفت نحو بابه الرئيسي، وكان «**نجم الدين**» أول من بحثت عيناي عنه، ووجدته يجلس في المُنتصف بين الوزير والمُحافظ.

تضج القاعة بالحضور، وإن كان معظمهم من رجال الأعمال، فسيماهم على وجوههم من نفخة كاذبة، تكاد بذلاتهم تنفجر من تضخم بطونهم المتورمة بالأموال، سِرتُ بين الطاولات، أتابع الوجوه في جللٍ وصمت؛ فالمكان يحمل هيبة غير عادية، تنهدت مُحاولةً تخفيفَ الرهبة التي تجتاح رأسي.

وقفت في الجانب الأيمن؛ لما له من إضاءة كافية لممارسة مهنتي التي جئت لأجلها، وكان ل«نجم» النصيب الأكبر من الصور، تركت المؤتمر في مُنتصفه، في أثناء الاستراحة.

لم يرُق لي حديث نجم الدين على الجانب الشخصي، فكان يُردد كالببغاوات من دون وعي، كالقومِ الذين لا يبصرون ولا يسمعون الحقائق ولا يفقهون حتى حديثًا، وعلى الرغم من هذا، أحبه.. فماذا لو اتبع نهجي نفسه؟ فهل هنالك حب فوق الحبِّ؟

خرجت نحو الشارع الكبير، أبحث عن مركز لخدمات الكمبيوتر، لطباعة الصور وإخراجها إلى النور، حتى وجدت واحدًا على مطلعِ الشارع المجاور.. صدمني صاحبه حينما قال:

ـ استلامَ الصور بُكرة الضهر.

لكن بعدما توسلت إليه، فلحت في إقناعه أن ينهي المهمة الليلة مُقابل ضعف الأجر.

عُدتُ إلى قاعة المؤتمرات بعد ساعة ونصف الساعة، أصبح المكان مُظلمًا والباب مُغلقًا، انفلتت الصور من يدي بسبب صدمتي، وجلست على السُّلَّمِ، أندب حظي السيئ وأبكي حالي،

وأبدي الندم الكبير، يا ليتني مكثتُ في المؤتمر حتى النهاية وما تركت المكان وأجَّلت استخراج الصور فيما بعدُ، أين مكانك الآن يا «**نجم**» بالإسكندرية؟!

جمعت الصور من الأرض بعدما سقطت مني، ودلفت نحو باب الشاطئ المُقابل المكتوب على لافتته «**شاطئ أبو هيف**»، المكان مُمتلئ بالمقاعد الفارغة؛ فالوقت قد تجاوز مُنتصف الليل، البحر حزين لأجلي، وموجاته هادئة، اقترب نحوي حارس المكان وقال:

ـ باقي خمس ساعات على معاد عمل الشاطئ.

فقلت مُنزعجة:

ـ وهل للبحر مواعيد عمل رسمية؟

ـ دي قوانين.. وانا هنا مُجرد عامل وعليّ التنفيذ.

التمست له العُذر، فأكمل كأنه يعطف عليَّ بعدما نظر إلى حقيبة سفري الصغيرة التي أحملها على كتفي:

ـ البحر ملككِ.

شكرت له عطاءه الطيب، وسألته عن فندق أقضي فيه ليلتي حتى الصباح، فأشار لي نحو أحد الفنادق قائلًا:

ـ نضيف اوي وحاجة عالية.. دا كفاية انه فيه الليلة دي المُذيع المشهور دا بتاع برنامج الحقيقة اللي بيجي على التليفزيون.

وأخذ الرجل يفرك رأسه كأنه يتذكر، وقلت له:

ـ تقصد نجم الدين كامل؟

ـ آآآيوه.. هو دا اللي قصدي عليه.

خفق قلبي سريعًا، فطلبت من هذا الحارس فنجانًا من القهوة.. ذهب لإحضار ما طلبت، جلست على البحر، أرسم على رماله ملامح مَن أفكر به دومًا، ومن حينٍ لآخر أتطلع نحو نوافذ الفندق الكبير، أسأل حالي:

ـ يا ترى أنهي شباك اللي فيه أوضة نجم؟ خُسارة لو كُنت عملت حسابي في فلوس كفاية.. كان زماني حاجزة اوضة جنبه في نفس الفندق.. لكن خلاص هكمل الليلة دي هنا على البحر لحد الصبح يطلع وبعدها أرجع القاهرة علطول.

ـ الشط نوّر يا أستاذ «**نجم**».

لم أصدِّق ما سمعت، هل هذا صحيح ام مُجرد تهيؤات؟ وهل يقصد «**نجم**» ذاك الحبيب المُستحيل رجل الأقدار؟

تطلعت خلفي، وجدت السعادة تسير على قدمين، وقمر الكون قد سقط في جِيدي، ونجوم السماء قد أفسحت المجال لنجمي الكبير، يا له من قدرٍ بهيج ظننته عكس ذلك، يا لها من مُصادفات غير مُرتَّبة أجمل ما بها أنها تأتي من دون توقُّع وأفضل مما نتوقع.

تمنيت قبل قليل أن أراه، فظننت أمنيتي حلمًا مُستحيلًا، وبعدما نفضت غبارها عن رأسي بعد يأسٍ، تحققت أفضل مما تمنيت، ركضت نحو «**نجم الدين**» وسبقني قلبي في الركوض، وعرّفته بنفسي:

ـ «**زينب المصري**»، مُصورة بجريدة الكلمة، وجيت الإسكندرية عشان أصورك.. أقصد عشان أغطي المؤتمر بالصور.. مأمورية تبع شُغلي.

قلت جُمَلًا قصيرة مرتبكة وغير مُرتَّبة؛ ففي حضور «**نجم**» يضيع الكلام، فقال ضاحكًا:

ـ احنا اتقابلنا قبل كدا؟

ـ لا.. دي أولُ مرة!

مددت له يدي بالصور وقلت:

ـ مُمكن تقبل مني الصور دي؟

قال واثقًا وكأنني قبلت عرض العشاء وقبل أن ينطق به:

ـ خليني أشوفهم واحنا بنتعشى سوا.

لم أستطع أن أرفض دعوة «**نجم**» على العشاء في شقته الخاصة بالأسكندرية، فلم يجد راحته بالفندق، جلست بجانبه في سيارته الفخمة ذات اللون الأسود، وبدأ بوضع يده على كتفي، وأنا أترقَّب حركاته، فكان لجسده لغة خاصة تُخاطب فقط جسدي، ضمَّني نحوه كأنني طفلته، انتفضت وابتعدت.. قال:

ـ أعتذر لكِ يا...

قلت كي أذكره بما نسي:

ـ «**زينب**».. اسمي زينب!

ـ اسمك قديم جدًّا يا «**زينب**».

ـ محدش أخد رأيي في موضوع اسمي دا..

ـ لكن روحك بتحلي اسمك، قوليلي لو كان ليكِ حق في اختيار اسمك.. هتختاري ايه؟

ـ زينب..

ضحك «**نجم**» وقال:

ـ وأنا حبيتُ اسمك يا «**زينب**».

فرحتُ كثيرًا؛ فهذه خطوة مُبشِّرة، الآن أَحَبَّ اسمي وروحي، وبعد قليل سيتطوَّر الأمر ويحبني وسيتقدم لخطبتي من أهلي وسأصبح زوجته، يا لها من أفكار بعيدة المنال، فلقد تجاوزت المدى بخيالاتي، رفقًا بي يا أفكاري.. اتركيني أحيا ليلتي بكل لحظاتها؛ فالواقع الآن أجمل بكثير من أي حلم.

ضمني «**نجم**» نحو صدره بقوَّة؛ وَضْعُ رأسي بجانب قلبه جعلني أسمع نبضاته المُتأنية تارةً والمُضطربة تارة، نفث دخانه صوبي، فقدت الوعي، وأصابتني نوبة من الهذيان الجميل، جذبني من يدي كالتائهة وهو مُنقذي الوحيد، ركبنا المصعد معًا، وحينها عانقني بقوة، ارتخت أعصابي، والحجر الذي يكمن برأسي قد

ذاب، وصلنا إلى الطابق الثامن، ودلفنا نحو شقته، المطبخ على الجانب الأيمن، وأمامنا طاولة بها أطيب أنواع الطعام كأنه يعلم أن إحداهن سترافقه وتشاركه ليلته، شعرت بالغيرة لوهلة، سرنا حتى نهاية الطُّرقة؛ حيث غُرفة النوم الخاصة، وكانت بها إضاءة خافتة تأسر من هم ضعاف القلوب، كأمثالي، في هذه اللحظة، ذهبت إلى الحمَّام الداخلي لهذه الغُرفة، سكبتُ على جسدي القليلَ من الماء البارد سريعًا، لتخفيف حدَّة نيراني المتوهِّجة، فجسدي كله يصرخ لأجله، خرجت إلى مَن ينتظرني بلهفة العاشقين، تمددت جواره على الفراش، قال:

ـ الليلة دي انتِ ملكي يا زينب.

أومأت برأسي بالموافقة واقتربت منه أكثر وقلت:

ـ كُلي ملكك يا نجم .

ـ هخليكي تفتكري الوقت دا طول حياتك، أنتِ عارفه يا زينب إن شغف أي راجل بأي واحده بيوصل لذروته في اللحظة دي وبعدها بيموت؟

زرعت جسدي داخله أكثر وعانقته بشدة، ثم ابتعدت فجأة، وحينها قال بغضبٍ:

ـ بتبعدي ليه؟

قلت وأنا أرتدي ثيابي:

- مش عاوزه شغفك ينطفي ناحيتي، مش عاوزه أكون مُجرد لحظة عابرة في حياتك ممكن ما تفتكرهاش خالص، مش عاوزه أكون شبه أي واحده من اللي كانوا بدايتهم ونهايتهم في حضنك.
- أومال ليه وافقتي تيجي معايا؟
- كُنت طمعانه أسكن قلبك علطول مش أسكن سريرك لليلة واحدة.
- والمطلوب!!
- تسيبني أمشي.

تركني أذهب وشأني، وأشعل سيجارة ونفث دخانها بشراهة فائقة، كاد غضبه يحرق المكان، ويبدل حال البحر إلى نيران، ارتديت ملابسي وحملت حقيبتي وكاميرتي وتركت الصور التي التقطتها له على الطاولة وكتبت خلف إحداها:

«**سلام على من يعشقهم القلب بلا سبب**».

ركضت نحو البحر، أودعه وألقي به بقايا حلم لم يكتمل، مُعلنةً تمردي كموجاته الثائرة.. نعم، فأنا المُتمردةً دومًا وأبدًا، خُلقتُ لأتمرد على حال القلب والوطن وكُل البشر، فكان شعاري: الإصلاح والتعمير قبل الحب أحيانًا.



انقلبت وسائل الإعلام رأسًا على عقب؛ فمثل هذه الحوادث أصبحت عادة يومية، وأول خبر قد تقرؤه في الجرائد يكون عن حوادث الطرق والقطارات، كانقلاب أحد الأتوبيسات أو ارتطام قطار بآخر أو ارتطامه بسيارة نقل كبيرة أو غيرها، والنتيجة مُفجعة للغاية: مصرع مواطنين، قد يكون من بينهم أطفال، وإصابة آخرين، وهذا اليوم تحديدًا، شهد صباحه حادثة طريق من أبشع ما حدث، فكان معظم ضحاياه فتيات في سن الزهور، ذهبن قاصدات الجامعة الجديدة في أول يوم بدراستهن، ذهبن حاملات على أعناقهن أحلام أهلهن، ذهبن حيث اللاعودة.

كنت بعد ساعة في مكان الحادث، بشاعة المنظر لا تُضاهيها بشاعة، أشلاء مُلقاة هُنا وهُناك، حاولتُ الضغط على نفسي لتصوير الحادثة بكل تفاصيلها الموجعة: جُثث غير واضحة المعالم، سيارة مُلقاة في ترعة صغيرة، أناس يتساءلون بصرخاتهم: «**لِمَ كُل هذا التأخير من قِبَل النجدة والإسعاف**». وآخرون

يفتشون في حقائب الضحايا عن شيء يسرقونه، كنقود مُختلطة بالدم، أو بقايا هاتف محمول.

جذبت إحداهن انتباهي، كان وجهها مبتسمًا صبوحًا، كأنها لم تمُت بعدُ، عيناها تنظران لي بفرحة، وحينها لم أستطِع أن أغالب صرخاتي المُنهارة، ما زلتُ لم أصدق ما حدث.. العروس التي ستُزف على عريسها بعد دراستها، مُلقاة على الأرض جثة هامدة، لا حول لها ولا قوة، زهرات البُستان اللاتي ينبتن في قلبِ وطن لا يُحافظ على رياحينه ونبته الطيب، دهسها البُستاني الذي لا يُجيد الري أو الزراعة وحصدها قبل أوان نمائها وطرحها.

أمسكتُ هاتفًا كان مُختلطًا بالدماء لم يرَه أحد السارقين، الذين لا يعرفون الرحمة وكُل همهم حصاد غنائم الموتى، رنّ في هذه اللحظة، ضغطت على زر الرد، فسمعت صوتًا يقول:

- مش اتفقنا يا حبيبتي إنك تتصلي بيّا أول ما توصلي الجامعة؟

قلتُ والألم يمزقني والدموع تنساب من عينيَّ:

- حبيبتك مراحتش الجامعة ولا هتروح.. حبيبتك راحت الجنة!!

في المساء، شاهدته يصرخ عبر برنامجه والدم يغلي في عروقه:

ـ فين المسئولين؟؟ كل يوم نسمع عن حوادث الطرق، أنا عارف إنها كلمة الله على أرواحهم ولا بدّ من نفاذ كلمته، لكن لازم كمان الجهر بالأسباب، عشان نتفادى حاجات زي دي في المُستقبل البعيد أو القريب، هل السبب يرجع إلى عدم صلاحية الطُرق للسير عليها؟ ولا لعدم وجود حواجز على كل بوابات القطار مع عدم وجود عامل على كل بوابة؟ أو بيرجع لوجود عيب ما في العربة المُنقلبة وعدم الكشف الدوري عليها وعمل الصيانة اللازمة على الاتوبيسات أول بأول؟ أو أو أو؟؟؟ فييييين المسئولين اللي بيتفرجوا على البرنامج دلوقتي.. يردوا عليّا؟ بلدنا يا سادة الأولى عالميًا في حوادث الطُرق بأكبر عدد من الضحايا والمصابين!!

كانت هذه هي أول مرة أشاهد فيها نجم الدين ينفعل بحدة لا مُتناهية عبر برنامجه الأكثر مُشاهدةً في العالم العربي، يُلقي اللوم على الكبار بعدما كان يهتف بنجاحاتهم الخارقة للطبيعة وإنجازاتهم غير العادية، أول مرة أراك يا نجم تنحاز نحو الحق، وحينها تحجَّرت الدموع في عينيَّ، بعدما تيقنت أن هُناك من يبصر ويعقل ويعي من دون تزييف للحقائق؛ فأكثر المواقف التي أحتاج فيها بشدة لهذه الدموع؛ كي تُزيح عن صدري براكين الغضب والألم وقلة الحيلة، أجدها تسوق دلالها على عيني

وتركض بعيدًا، تبًّا لها ولعصيانها أوامر مشاعري الحزينة، وتبًّا لكُل مسئول لم يلتفت نحو مصالح جميع رعاياه على حدٍّ سواء!

مرت دقائق معدودات من البرنامج وما زال مُقدمه يضغط على أسنانه غيظًا وحنقًا، ثم بدأ الإرسال يضعف بالتدريج حتى توقف البث، وحلَّت الفواصل الإعلانية بديلًا سقيمًا، كإعلان عن كريم حلاقة للرجال، وأعقبه إعلان عن الكريم السحري لحل مشاكل الزوجين وتقوية العلاقات الجنسية بينهما.. إنه الغباء بعينه. أريد عودة بث البرنامج، لكن انتظاري صاحبه الفشل، وبعد الإعلانات التي لا تُسمن ولا تُغني من جوع، بدأت القناة في بث برنامج تافه: مُسابقة بين مجموعتين من الفنانين الصاعدين، كنوع من البرامج الترفيهية، أو بالأحرى نوع من أنواع المُسكنات المؤقَّتة، لسد الحناجر وتثبيط العزائم، والضحك على الذقون لتهدئة الوضع، لكن القناعة تملؤني أن هذه المُسكنات لن تدوم طويلًا؛ فكثرة المُسكنات تؤدي إلى طريقين لا ثالث لهما، الأول: قد تُضعف عضلات القلب وتؤدي إلى الوفاة، وهذا هو الخنوع بعينه، والآخر: قد لا ينفع تأثيرها، ومن ثَمَّ تزداد حدة الألم، فتجبرنا الظروف على تجاوزها بمعرفة الأسباب الأصلية، ومن ثَمَّ التطرق نحو العلاج الدائم من بعد المواجهة. وإن كُنت أتمنى الطريق الثاني: الثورة في وجه الألم، واقتلاع جذوره الحبيسة من داخلنا أولًا.

لكن لا بأس، ستمر الحادثة مرور الكرام، كما مرت الحوادث السابقة، وستُحل الواقعة حلًّا سحريًّا بمنح أسر الضحايا مبلغًا كبيرًا مُقابل أرواح رخيصة بلا قيمة، ومن المتوقَّع أن يكون المبلغ الكبير المدفوع لكل أسرة عشرة آلاف من الجنيهات على سبيل المثال. هذا المبلغ، من المؤكد أنه كفيل بإخماد أي حُزن وتجفيف الدمعات، بل وكفيل بنسيان الضحية من الأساس، ولن ننسى بالطبع العُمرة المهداة للوالدَين، كي يدعوا بالرحمة لمتوفاهما من أصدق مكان في بقاع الأرضِ.



في الليلة الأخيرة من نوفمبر، تلقيتُ اتصالًا هاتفيًّا غير عادي، ربما لأنني انتظرته كثيرًا، وعندما فقدت الأمل وجدت ما حلمت به يتحقق، عندما رأيت رقمه يُضيء شاشة هاتفي وقلت بقلب راقص من فرط السعادة وكأنني أجهل الرقم:

ـ ألو.. مين معايا؟

ـ نجم الدين كامل.. عاوز أقابلك!

كانت هذه هي المرة الأولى التي أسمع بها صوته عبر الهاتف، وثاني لقاء سيجمعني به، بعدما كان الأول في فبراير الماضي في الإسكندرية، لم يكن صوته بنفس الشدة التي عرفته بها من خلال التلفاز عبر برنامجه الشهير «**الحقيقة في عيون الشعب**»، الذي لا أطيقه على الجانب الشخصي؛ لأن به من النفاق والكذب ما يدعو للغثيان، وكانت إرادتي تتسع بمرور الوقت لكشف الحقائق لمن لا يتدبرون، والشيء الوحيد الذي يدفعني إلى مُشاهدة هذا البرنامج هو «**نجم الدين**» ذاته، لكنني اندهشت للغاية، وسألت

نفسي: لماذا يطلب مُقابلتي وكنت قد ظننت أنه لا مكان ولا زمان سيجمعنا ثانية بعد الخلاف الذي حدث بيننا في لقائنا السابق؟ وكيف عرف رقم هاتفي الخاص؟ لا بُدَّ أنه ساحر أو يُصادق مُشعوِذًا.

فتحت خزانة ملابسي، وأطلت الوقوف أمامها للمرة الأولى في حياتي، فكأن الملابس كُلها لا تليق بهذا اللقاء، أو أن هذا اللقاء مجرد حلم أردت أن أتمهل في تحقيقه، فلم أجد إلا أمي كي تُخرجني من هذا الموقف المُحيِّر.

ـ ألبس ايه يا ماما؟

أجابتني سريعًا من دون حيرة؛ فكثيرًا ما يُقنعني رأيها؛ فهي صديقتي وحافظة أسراري قبل أن تكون أمي:

ـ ألبسي الفُستان الأسود.. بتكوني فيه زي القمر في ليلة تمامه.

اقتنعتُ برأيها السديد وعانقتُها بشدة؛ لأنني أعشق اللون الأسود في كُل شيء؛ فكل الألوان تبدو عادية، وعندما نمزجها بالأسود يبرز جمالها، فما بالنا بالأسود فقط دون مزجه بأي لون آخر؟ ثم دخلت أمي للنوم بعد أن وعدتها أن أقص عليها كل ما سيحدث.

وقفتُ أمام المرآة ساعةً بأكملها لم أشعر بها، وحينها افتعلتُ حركات البنات فوضعت على وجهي مساحيق التجميل وحددت شفتيَّ بالقلم الأحمر، ولم أنسَ عينيَّ فكان لهما النصيب الأكبر

من التخطيط والتكحيل وإطالة الرموش.. وبعد أن تأكدت من وضع كُل شيء على وجهي في مكانه المناسب، حان الوقت لاختيار الحذاء والحقيبة المُناسبين، كُنت في حيرة شديدة.. وكأنني أول مرة أقابل أحدًا، لكن «**نجم الدين**» ليس كأي أحد؛ فهو حلم طالما حلمت به، ورجل الأقدار كما أسميته.

اخترتُ الحقيبة والحذاء الأحمرين؛ ففي العادي أختار الألوان العشوائية التي لا صلة لها ببعضها في ملبسي، فكنت دومًا ألفت انتباه صديقاتي، ويتخذن من ألواني العشوائية أفكارًا لهن، وغالبًا ما يُقلدنني، لكن في هذا اللقاء لا بُدَّ من تنسيق الألوان، وكان اللون الأحمر صديق الأسود تلك الليلة.

وبعد مضي أكثر من ساعة في التجهيز والاستعداد لهذا اللقاء، خُطف قلبي من مكانه عندما سمعت هاتفي يرن ثانية:

- مستنيكِ يا زينب على مقهى زهرة البُستان.

طربت أذناي فرحةً، وعدت ثانية إلى الدولاب وأخرجت منه قميص مخطط وبنطال جينز وأبدلت الفُستان بهم وعدت نحو المرآة ومسحت كل ما على وجهي وحزمت شعري بشريطة عريضة وأبدلت الحذاء الأحمر «**بكوتشي أبيض**» والشنطة الحمراء بأخرى صغيرة أحملها على ظهري؛ فلا حاجة بي للكذب والزيف؛ فمن يحب بصدق يرى حبيبه بعينيه فقط أجمل ما على الأرض ومن لا يطرق الحب بابه يرى أجمل الناس معدومي الجمال، هكذا تكمن

قيمة الجمال ومغزاه في صدق الحب؛ فعين العاشق ترى ما لا يراه الآخرون وتعمى عمَّا يبصرون.

أسرعت الخطى كي أستعجلَ رؤيته، وقفت على رأس الشارع المُكتظ بالطاولات التي يجلس فيها كمٌّ صاخب من الشباب والفتيات، أبحث بعيني عن رجل الأقدار، فرأيته من بعيد يحتسي قهوته ويدخِّن النرجيلة، يعبث دُخانها بأنفاسه، لوَّحت له بيدي فتقدم نحوي وسلم عليَّ:

- عامله ايه يا زينب؟

- الحمد لله بخير.

ذهبت معه وجلست على طاولته نفسها، لكن أزعجني جلوسي للمرة الأولى على مقهى، فطلبت منه المغادرة، وقال كي يُبرر جلوسنا في مثل هذا المكان على أنه أمر طبيعي:

- في بنات كتير قاعده هنا حوالينا، مفيش داعي للتوتر والقلق، اهدي من فضلك.

فوجدني على حالي المضطرب وكأنني لم أبالِ لقوله وما زلتُ أرفض الجلوس بين دُخان الجالسين وأصوات النرد في أثناء لعب بعضهم، ثُم استأنف كلامه بحدة:

- طيب استني أخلص قهوتي ونقوم.

تظاهرت بانشغالي بتفقُّد المكان، وفي الحقيقة أردتُ أن أهرب من نظراته المستمرة التي لم أجد لها أي مُبرر، وبعد مرور

دقيقتين ودَّع فنجان قهوته برشفته الأخيرة، وسرنا في جنح الليل معًا نتفقد فتارين محال وسط البلد، وبعد لحظات من الصمت الجميل، قال بلهجة واثقة:

ـ ليه مش بتمسكي إيدي مع إنك عاوزه كدا؟

استنكرتُ ظنه الصادق ونطقتُ كذبًا:

ـ لا طبعا مش عاوزه.

كان نجم الدين طويل القامة، نحيف القوام، أصلُ بالكاد إلى كتفه، جريء القول، لا يكبحه أي رادع أو كبير؛ فلا كبير لنفسه عدا نفسه، كلمته فوق رؤوس البشر ولا تحتمل الخطأ، مجنون برداء العقل، مُتهور لا يخشى الحياة، مُندفع قد يُقدِّم عُمرَه ثمنًا بخسًا مُقابل إثبات صدق قوله، يعشق وطنه بطريقته بلا حدود، يُدخِّن السجائر بشراهة حتى ظننتُ أنها لا تبرح شفتيه إلا عند النوم، عيناه واثقتان ثاقبتان عميقتان، حتى ظننت أن عينيه قد خُلقتا لتعذيب النساء، لهما لغة خاصة لا يقوى أحد على فك شفراتها، عندما يتحدث إليك تشعر بأنه حكيم عصره وزمانه، وعندما يصمت تظن أنه يحمل هموم الأرض على عاتقه، لكنه عندما يبتسم يصير طفلًا، أما إذا تملَّكه الحزن تخاله شيخًا عابسًا، له فلسفة فريدة في الحياة ومنطق مُختلف، مُختلف جدًّا، وكأنه أفلاطون عصره وأرسطو أوانه أو كأن قسم الفلسفة بالجامعات خُلق خصيصًا من أجله، يكبرني بأكثر من عشر أعوام، فلا زلت

بمنتصف العشرين وهو بأواخر الثلاثين، أسير جانبه وكأنني صغيرته، رُبما لفارق الطول أو العُمر أو الاثنين معًا.

وبعد دقائق من الصمت، استغرقتُها في تحليل شخصيته المتناقضة، قرَّب يده من يدي في هدوء، وتخللت أصابعه أصابعي، دق قلبي كثيرًا وشعرت بالطمأنينة والألفة، وتملَّكني إحساس فريد من نوعه، لم أكن أعلم أن لعناق الأصابع لغةً خاصةً لن يفهمها الكثيرون، وكنت أجهلها طوال عمري، وأن الحواس كُلها تعمل في وقت واحد، فترى العالم مُبهجًا، وتسمع لحنًا فريدًا عذبًا، وتلمس الجنة بقدميك، وتستنشق نسائم الكون ليلًا.. وبهدوء أكبر، سحبتُ يدي من يده كي أعود من شرودي.

وقفنا أمام أحد المحال وأشار بسبابته:

ـ جميل الجاكيت الرمادي دا.

ـ فعلًا.

ـ والفستان دا هيبقى حلو عليكي.

ـ مش عاجبني.

اندهش من أمري؛ ربما لأنني خالفت رأيه في المرة الثانية، وهو من الرجال الذين لا يحبون مَن يعارض رأيهم، أو ربما لظنه أنني لا أقوى على الاعتراض، أكملنا سيرنا حتى وجدنا أنفسنا على كورنيش النيل، وقفنا جنبًا إلى جنب، كلانا يتحدث إلى النيل بطريقته، المكان هادئ إلى حدٍّ ما، إلا أنه لم يخلُ من بعض

العاشقينٍ وهمساتهم، وبائع الذرة الذي يشهد على حكاياهم مع انه مُنهمكًا في عمله.

بدأ البرد يغزو أجسادنا بشدة في تلك الليلة، فأردف بلهجة مرتعشة:

ـ بردانه؟

ـ أيوه.

ـ كلميني عن نفسك.. وقوليلي ليه حبتيني؟

ـ أنا مش بحبك.

ـ بتكذبي؟

التزمتُ الصمت لبرهة حتى لا تفضحني عيناي، ويتأكد من حبي له قبل أن ألقاه، فقد كان حلمي في يقظتي قبل نومي، وأعظم أمنياتي بالحياة، وعدت لأتأمل مياه النيل الراكدة، والأنوار التي تغطي المكان، والفنادق والعمارات الشاهقة.. حتى تعلقت عيناي ببُرج القاهرة، وحينها قطع صمتي قائلًا:

ـ هناك في الناحية التانية مبنى القناة اللي بشتغل فيها في الزمالك.

فرحتُ لأنني علمتُ مكان عمله، ظنًّا مني أنه بإمكاني الذهاب إلى هُناك كلما اشتقتُ إليه، ثم أشار بعينيه نحو النيل متحدثًا:

ـ عارفه يا زينب أنتِ شبه ايه؟

سكتّ وانتظرت اجابته.

شبه النيل هادية وصافية لكن مُتمردة!

أصاب قولُه عقلي، حتى صرت أردده في كل وقت: «**مثل، النيل، هادئة، صافية، لكنني، مُتمردة**».

أخرَجَ سيجارة ونفث دُخانها صوبي، وعيناه تركضان خلف عينيَّ الهاربتين، فأسكرني دخانه أكثر، وفي هذه اللحظة جاءت طفلة، تشرب عصيرًا، من المؤكد أنه منحة من أحد العاشقين من واقفي المكان مثلنا، تبدو عليها معالم الفقر والتشرد.. وفصلت بيننا، فسألها نجم الدين:

ـ اسمك ايه؟

لم تُجِبه، فأخرج من جيبه جُنيهًا، فأجابته:

ـ اسمي «**حبيبة**».

قال ضاحكًا:

ـ بتبيعي اسمك ياحبيبة في مُقابل جُنية؟

ثُم استبدل الجُنيه بخمسة جنيهات وسألها:

ـ فين والدك وازاي يسيبك في وقت متأخر زي دا؟

ـ أبويا مات.

قلتُ لنفسي والحزن يشق قلبي نصفين «**آهٍ يا وطن، تقذف بأبنائك في شوارعك، يستجدون فُتات العيش أو بضعة قروش.**»

ثُم غيَّر نجم الدين مجرى الحديث؛ فالموقف لم يستدعِ هذه الأحزان وليدة اللحظة، وقال ضاحكًا:

ـ هُمّا أمثالك ليهم الحق في شُرب العصير يا حبيبة؟

أومأَتِ الطفلةُ برأسها وضحكتْ واقتربت ناحيتي، تُداعب وجهي بكفها الضئيلة، وطبعت قُبلة دافئة على خدي الأيمن، فأمرها «**نجم الدين**» بالانصراف سريعًا؛ لاعتقاده أنها أصابتني بالضيق، على عكس ما شعرت به بالفعل؛ فلقد دخلت «**حبيبة**» قلبي بكل قوة، وسأظل أتذكرها طالما حييت، فكيف لي أن أنسى مَن جعلتني أرى الوجه الثاني الحنون لرجل الأقدار؟ وكيف لي أن أنسى مَن شاركتني لحظات من السعادة الحقيقية، أعلم أنها لن تتكرر ثانية؟ وكيف لي أن أقسو على أمثالها؟ تكفيها قسوة صروف الدهر.. ومنذ هذا الوقت، أصبحت أرى «**حبيبة**» في أعين كُل أطفال الشوارع، ورددت داخلي: «**آهٍ يا وطن، وألف آهٍ**».

بعد قليل، قال قابضًا بيده على جانبه الأيمن كأنه يتألم:

ـ يلا بينا نمشي من هنا، فأنا رجل مريض.

شعرت حينها بالحُزن ورأيت العالم مُظلمًا وتوقفت حواسي عن العمل وصار النيل حزينًا لفراقنا وأنوار المكان قد انطفأت في عيني، حتى بائع الذرة رحل إلى بيته ليوفر طاقته لليلة تالية، ويمنح ما يبيعه لعاشقين آخرين، قلت وأنا أحبس أحزاني داخلي خلف صوت مبحوح:

ـ آسفه لو كُنت أرهقتك معايا في المشي الليلة دي.

فقال مُبتسمًا:

ـ أنا اللي طلبت أقابلك يا زينب مش أنتِ.

أمسك يدي للمرة الثانية كي يُعينني على تفادي السيارات والوصول إلى الناحية الأخرى من هذا الطريق السريع وعندما رآني ألتفت تجاه العربات قال:

ـ لما تكوني معايا.. تمسكي ايدي بس وتعدي علطول الشارع من غير ما تبصي ناحية العربيات خالص، اللحظات اللي بتاخديها وانتِ بتبصي للعربيات بتاخد من وقتك وانتِ بتعدي ويخلي العربية تقرب منك أكتر، اطمني طول ما أنا معاكِ يا زينب.

قلتُ من أجل اعتراض رأيه فقط؛ كي لا يعتقد أنني بلا رأي أو حجة:

ـ الخوف غريزة بشرية.. واحنا بشر!

ـ بتخافي من ايه يا زينب؟

ـ من كُل المشاعر السلبية: الألم، الدموع، الفراق، الكُره، الخُذلان، وحاجات زي كدا كتير.

ـ مش عاوز أكون سبب في وجعك يا زينب.

ـ ليه بتقول كدا يا نجم؟

نظر حينها إلى السماء، وأشار بيده:

ـ شايفه النجم البعيد دا؟

تطلعت نحو السماء وأجبته بأن لا، فطلب مني أن أدقق النظر وبالفعل.. رأيت نجمًا في المُنتصف مُنفردًا بنفسه لا يُبالي لما حوله من نجوم أخرى أو نجمات أخريات؛ وقال كأنه يُلمّح لشيء:

ـ أنا زي النجم البعيد دا..

لم أهتم بقوله وسحبت يدي من يده للمرة الثانية هذه الليلة، فقال ثائرًا:

ـ أنتِ عارفه أن أجمل النساء تتمنى بس كلمة مني أو نظرة؟

اعترضتُ حديثه ونار الغيرة تُمزِّق قلبي:

ـ وأنا غير أي واحدة قابلتها في حياتك.

ردَّ بثقة:

ـ أكتر حاجة مُمكن تخنقني لما أسمع جملة «**أنا غير أي واحدة**»، الست المُتفردة بطبيعتها وما لهاش مثيل عليها الفعل لا القول، وعليَّ أنا الحُكم.

لقد غلبني نجم الدين في قوله هذا، وعلمتُ أنني مُجرد نسخة مُكررة للكثيرات ممن وقعن في شباك حُبه لكنني لازلت في الرُكن الآمن ولم أقع في الخطأ كما وقعن معه غيري، فعاد يتحدث:

ـ بتصلي يا زينب؟

ـ مش بسيب فرض.. وأنت!!

ـ عمري ما صليت.. حاولت مرة زمان وانا طفل لكن فشلت.

ـ حاول تاني وانت كبير..

ـ موعدكيش.. أنتِ عارفه انك ماشيه مع راجل سيء السُمعة؟

فقلت حسبما رأيته بعيون قلبي خالي من العيوب:

ـ لا معرفش.

ـ وعلى الرغم من سوء سُمعتي.. مش طمعان فيكِ

نظرتُ إليه كأنني أكذِّبه، فلمسة يده تُخبرني عكس ذلك، تخبرني أنه يريد عناقي بكل ما بي، ولا يكفيه عناق الأكفِّ فقط، ونظراته المتواصلة تخبرني أنني أسرتُ فكره وملأت رأسه، فماذا إذًا عن أحاسيسنا التي أيقن أنها مُتبادَلة؟

أكملنا سيرنا معًا نبحث عن أي مقهى عائلي نجلس فيه، وحينها رنَّ هاتفه، وسمعته يقول:

ـ هكون عندك يا جبريل بعد دقايق، استناني على قهوة البُستان.

أنهى نجم الدين مُكالمته مع صديقه، وقال مُعتذرًا:

ـ جبريل صاحبي مستنيني، هوصلك وأرجع على القهوة.

سِرنا معًا حتى وصلنا إلى الشارع الكبير الذي يقع فيه مكان سكني، استجمعت جرأتي تلك المرة ونفضت خجلي لثوانٍ ومددت يدي نحوه، فلم أُرِد أن أنهي لقاءنا إلا بذكرى جميلة، فتحدثتُ بصدقٍ:

ـ أنت وحشتني يا نجم.. وانت معايا دلوقتي وقبل ما تمشي؟

ردَّ كأنه يُعاكسني:

ـ عينيكِ جميلة يا زينب.

ـ عينيا سودا مش بجمال العيون الملونة.

ـ العيون السود في نظري أجمل العيون.

أخجلتني جرأته فكان صمتي، ثُم أمسكت «**الكوفية**» التي تلتف حول رقبته وقلت:

ـ جميلة ألوانها.

فقال كأنه أراد مُضايقتي:

ـ دي هدية من صديقة مُقربة.

قلت وكأنني لم أهتم بأمر صديقته:

ـ عارفه.. أكيد هديه من واحدة.

ضحك وقال: شكلك تعرفي عني كتير.

ثُم سألته بشيءٍ من الجدية:

ـ ليه طلبت تقابلني؟

ـ أنا متابع شُغلك في الجريدة ومعجب بيه مع بعض التحفظات، وعشان كدا جبتلك فرصة شغل كويسه اوي في القناة اللي بشتغل فيها.

أثار اقتراحه غضبي وقلت ثائرة:

ـ أنا مُستحيل أشتغل في قناة زي دي مع حد زي نجيب صبحي كل همهم الضحك على الناس الغلابة والكذب والتزييف.

ـ أنتِ بترفضي تشتغلي معايا؟ على كل حال أنا مش هقدر أغير قناعاتك في الحياة عن أي حاجة وكُل حاجة، زي ما أنتِ كمان مش هتقدري تغيري قناعاتي اللي هي عكسك تمامًا.. وواضح انه مفيش أي نقطة تلاقي بيننا لحد ما تغيري رأيك أنتِ يا زينب عشان أنا مستحيل أغير أي حاجة مؤمن بيها.

ثُم قال كي يُنهِي اللقاء ويلحق بصديقه الذي ينتظره:

ـ دي آخر مرة نتقابل فيها يا زينب.

لم أبالِ لقوله؛ فنظراته تُخبرني بأننا سنلتقي مرارًا وتكرارًا، ووقفت أرمقه بنظراتي بعدما عبر إلى الجهة المُقابلة، حتى ذاب كالجليد واختفى جسده عن عينيَّ، وانقطع طيفه مع دخان الشتاء البارد المُتصاعد من أفواه السهارى، وتلاشى في العتمة ولم يتبقَّ منه سوى غبار ليلي، تطاير بعد ثوانٍ.

عُدت إلى بيتي، أتحسس بقايا الواقع بعيني، فما زلت أحيا في حُلم جميل، ارتميت على فراشي، وسحبت الغطاء على جسدي ودفنتُ وجهي بين ثنايا وسادتي، وأنا أعتصر داخلي لومًا لنفسي، فكيف رفضت أن تُعانق يدي يده مرتين؟ كيف قضيت مُعظم الوقت في صمتٍ غبي وبداخلي حديث لا نهاية له؟ كيف لم أسأله عن موعد آخر من السعادة؟ كيف لم أدْعُه لاحتساء فنجان من القهوة في بيتنا بصحبة أمي وأبي وأخي؟ كيف لم أرمِ أجزائي في كُلِّ تفاصيله وأقول له: «**أحبك يا نجم**»؟

لم يزُر النومُ جفوني في تلك الليلة الباردة.. تركت فراشي، ارتديت ملابسي نفسها، خرجتُ إلى شوارع القاهرة بعد مُنتصف الليل بساعتين، الخلق نيام والهدوء حلَّ مكان الزحام، أصبح الطريق خاليًا من السيارات وخُطى البشر، عدا شخصين أو ثلاثة، يتطلعون نحوي في دهشة لخروجي من بيتي في هذا الوقت المُتأخر، وجدت نفسي على كورنيش النيل، أبكي حال قلبي، أبكي الماضي القريب الذي أمسى ذكرى.. النيل حزين لحُزني، السماء خلت من ساكنيها، أين أنتِ يا «**حبيبة**»؟ أين أنتَ يا نجم؟

وفجأة، سمعت صوت رجل غريب في سيارته:

- تعالَي معايا يا قمر وسيبك من اللي بتفكري فيه.

نظرت إليه باشمئزاز، وسرتُ نحو بيتي بخُطى مُتعجلة، وأنا أردد آخر كلمات نجم الدين «**دي آخر مرة نتقابل فيها يا**

زينب»، وفهمت مقصده عندما نظر إلى السماء قائلًا: أنا زي النجم البعيد دا.

مضت الساعات ببطء شديد، أقضي مُعظم وقتي في النوم، أصبحت أفتعل أشياء لم أكن أفتعلها في السابق، كي أستحضر بها روح نجم الدين، أحتسي قهوة كُل مساء مع سيجارتين من النوع نفسه الذي كان ينفثه وإن اختلف الدخان المُنبثق؛ فدخانه له سحر وجاذبية خاصة، تُذهب العقل.

وذات ليلة، وصل شوقي له إلى قمته، وانخفضت ثورة كرامتي، أمسكت بهاتفي، وكتبت له رسالة بدموع عيني:

- ليه كُل القسوة دي؟ ليه تسيبني في بداية الطريق وتقوللي انها النهاية؟ ليه تبعد وانا محتاجة لك؟ لسه في أماكن ماروحنهاش سوا.. لسه في كلام ما سمعتهوش منك ولا سمعته مني.. لسه في حاجات كتير في حكايتنا معشنهاش، أنت أكيد مش نجم اللي قابلته واتكلم مع حبيبه.. أنت واحد تاني خالص، ما تعرفش يعني ايه حد يحبك وتكسره.. عارف ليه؟ عشان عُمرك ما جربت إحساس الحُب، وازاي تجرّبه وانت كل يوم مع واحده، حقيقي أنا مُشفقة عليك ومُشفقة على كُل واحد عاش ومات من غير ما يعرف يعني ايه حُب، ووعد مني ليك إني أنساك عشان نفسي تستاهل إني مظلمهاش معاك في حب من طرف واحد، ومتأكدة أنه بالرغم من علاقاتك

الكتير ومُعجباتك الأكتر.. إلا نهايتك هتكون فيها وحيد..

وبعد أيام، استيقظت على رسالة أبهجت قلبي عندما قرأت اسم مرسلها: نجم الدين كامل، لكنها قتلتني في الوقت ذاته، كان بها:

صباح الخير يا زينب، أنا ببعد عنك لمصلحتك، أنا راجل مشوّه وأنتِ طفلة بريئة نقيه من جوّه وبرّه.. هبعد عنك عشان ما تتعبيش معايا طول حياتك، أنا اخترت إني أكون زي النجم اللي بيطل عليكِ كُل ليلة من الشباك، أنور لك من بعيد لكن مقربش عشان محرقكيش زي غيرك لما قرب، وتكون نهايتك على إيدي، أنا عاوز لك تكون بدايتك من اللحظة اللي بتقري فيها رسالتي دي؛ وقسوتي اللي أنتِ شايفاها هتخليكِ مُتحررة أكتر من غير أي قيود، أوعدك بكدا يا صاحبة القلب الأخضر.

علمت حينها أنه لم يحبني كما أحببته، وأنني كُنت له مُجرد لحظة في عُمره قد لا تأتي في خاطره من الأساس، أو كنسمة دافئة في ليلة قارسة البرودة، سُرعان ما تختفي، لكنك ستظل يا نجم الدين حُبَّ عُمرٍ بأكمله، ونجم سمائي البعيد الذي يمد ليلتي بالأمل والحياة والنور، مع أنني أعلم أني لك مُجرد زهرة على الأرض بلا قيمة، وإن كانت قيمتي يعلمها غيرك، لكن غيرك لا يكفيني؛ فالمسافات بين النجوم والورود كالتي بين السماء

والأرض، سيبقى الاتصال بينهما مُستحيلًا يحمل في طياته أحلامًا تعيسة وآمالًا صعبة المنال.

لقد كان نجم الدين أحمقَ، على الرغم من حدَّة نظراته، أراد البعد كي لا يُعلقني به ولم يعلم أنني قد أحببته بالفعل، وقرار بُعده قتلني بعدما لفَّ حبل اليأس حول قلبي..قد كان نجم أحمق عندما أراد لي العيش بلا قيود الحُب ولم يعلم أن قيوده تُكبلني.. أحمق أنت يا من أحببت!

أمسكت بهاتفي واستجمعت كُل قواي الواهنة وكتبت آخر رسالة له، رُبما تُعيد قدرًا من كرامتي وترفع من شأني في عيني، أخبرته بها أنه لا شيء لي وأني لا ألتفت لأمره، وكأنه لم يكن، وكتبت كلمة واحدة وضغطت على زر الإرسال:

- بكرهك.

قلتُها كذبًا؛ فأنا امرأة تكذب حينما تتحدث عن حالها وحال قلبها، وهذه الكلمة إن دلت على شيء، فلن تدل إلا على «**أُحبك جدًا**».

تناسيت بالتدريج هذه الليلة بعدما محوت كلمة حُب من قاموسي الشخصي، وعدت إلى مُمارسة حياتي الطبيعية شيئًا فشيئًا؛ حيث العمل والصداقة والأهل، فلم تقف الحياة يومًا عند أحد أو حدث، تسير كيفما لا نشاء، والفَطِن هو من يسير معها على نفس سرعتها بل ويسبقها، فكم هي قصيرة حياتنا، وجب

علينا أَلَّا نُهدرها في التفكير أو الانتظار، وأقنعت نفسي أنه سيأتي اليوم الذي سأقول به: لم يكن نسيانه سهلًا، لكنني فعلت!!



وفي صباح ٢٥ من يناير، كانت في نفسي لهفة طوَّقتني بحماسة في أول يوم أعمل به «**مصورة صحفية**» في الميادين العامة، وحينها أخبرني رئيس التحرير أنني المُكلفة بتغطية مُظاهرة اليوم مع صديقتي «**سمر الشاذلي**» وصديقي «**علاء يُسري**».

كان كل همي وشغلي الشاغل أن أثبت كفاءتي مهنيًّا وأني جديرة بحمل مثل هذه الآلة الصغيرة التي تلتقط صورًا للواقع بكل ما به من دون تزييف للحقائق ومن دون مجاملة أو إنكار؛ فعينُ الكاميرا هي العين التي لا تكذب أبدًا.

ـ «**سمر**».. أنتِ فين دلوقتي؟

ـ في ميدان طلعت حرب مع «**علاء**».. مستنينك يا زينب، يلا تعالي!

ـ هل في أي تطورات عندك يا سمر؟

ـ لا يا زينب، لكن في تجمعات صغيرة ومتفرقة من المتظاهرين.

ـ دقائق وهكون عندكم.. خلي بالك من نفسك وقولي كمان لعلاء يخلي باله منك ومن نفسه.

ـ ما تقلقيش علينا يا حبيبتي، احنا هنا في مُهمة شُغل وبس، وعشان تطمني أكتر، أوعدك يا زينب إني أخلي بالي من نفسي!

لم تكن «**سمر**» مُجرد زميلةِ عملٍ فقط، بل كانت صديقتي الوحيدة وأختي التي أنجبها القدرُ من رحم الحياة، بشوش ومرحة، تمدُّني بالطاقة الإيجابية كُلما نظرتُ في عينيها.. وعندما تبتسم، تبتسم الأشياء.. وعندما تثور، تهتز الأركان.. وعندما يقطِّب وجهها، تنطفئ النجوم.

كان أول لقاء بيننا في الجامعة، في أثناء دراستنا بكلية الإعلام قسم صحافة، تعرَّفت عليها في انتخابات اتحاد الطلبة، عندما كانت رئيسة اللجنة الثقافية، اكتسبتُ منها جرأتها، وصوتها العالي بالحق، استمددتُ منها القوة النابعة من وراء كلمة «**لا**» عندما يتطلب الأمر.

كُنتُ، في كثيرٍ من الأحيان، أشك في انتماءات صديقتي من شدة إيمانها بقضية مُعينة، لكن سُرعان ما أجدها تتحدث عن الجانب المُعادي وكأنها لم تكُن منذ قليلٍ مع الطرف الأول، حيادية في آرائها، كُنتُ أسألها دومًا:

- قوليلي يا سمر.. انتِ بتنتمي لأي حزب أو جماعة؟

وتأتيني اجابتها واثقة:

- إلى حزب عقلي وجماعة يقيني.

تفكيرها أكبر من سنها؛ فما زالت فتاة عشرينية بعقل رجل خمسيني، وقناعتها في الحياة ألَّا تُسلِّم عقلها لمن يعبث به وألَّا تخطو خلف مجموعة بعينها كالبعير، كانت دومًا تقول: أنا سيدة قراري، ولا قرار إلَّا من عقلي، وتدبيري يأتي من رؤيتي، وصدق رؤيتي مكمنه عين الكاميرا.

أما «**علاء**» فلم يكن مُجرد زميل عمل فقط، بل كان أخي الثاني، الذي ألجأ إليه وقت محنتي، ومُستشاري العاطفي في كُل ما يخص قلبي، كان يمتلك محالًّ لبيع النكات العذبة، يُضحكنا من القلب، حتى تدمع عيوننا من فرط الضحك، وعلى الرغم من هذا فإن ضحكاته كانت عزيزة، بدين الجسد، مرن الحركة، يقع كل من يراه في شباك صداقته، كبيرًا كان أو صغيرًا، يتيم الأبوين، يعيش مع عمه المُسن كي يرعاه بعدما أتم عامه الخامس والستين قبل شهر، حينها دعانا «**علاء**» للاحتفاء بهذه المُناسبة معهما، وكان يومًا من الأيام التي لا تُنسى أبدًا، كادت ضحكاتنا تصعق المكان برمته.

أحببتُ تلك الصديقة الثائرة على حق، وأحببت ذاك الصديق المُبهج بصدق، حتى أصبح ثلاثتنا عقلًا ويدًا واحدة في كل شيء.

أسرعت الخطى إلى مكان وجود الصديقين في الميدان لمُشاركتهما في نقل الحقائق أيًّا ما كانت؛ فالحيادية شعارنا دومًا وأبدًا، بحثت عنهما وسط الزحام الذي اشتد بعد صلاة العصر، فلم أجدهما، ورأيت تجمعًا في مكان مقارب يحوي أناسًا يُهرولون وصرخات تدوي، بينما كان أحدهم يستغيث:

ـ النجدة.. النجدة.. الإسعاف!

دلفت نحو هذا الحشد بعدما أيقنت أن هُناك قتيلًا بطلقة رصاص غادرة أو مُصابًا يُعاني سكرات الحياة قبل الموت.

وكانت صدمتي الكُبرى؛ صديقي «**علاء**» هو المُستغيث، يحمل «**سمر**» على كتفيه، يهرول هُنا وهُناك، غارقة صديقتي في دمائها بعدما اخترقت رصاصة لعين جسدها الضعيف، اخترقت صدرها وتسببت في نزيفٍ حاد.. وضعها علاء على الأرض كي تسهل حركته في البحث عن طبيب بين هذا الجمع، أو عن مشفى قريب بسؤال أهل المنطقة، تحدثتُ إليها كالمجنونة بدموع مُشتعلة:

ـ «**سمر**».. ليه موفتيش بوعدك انك تخلي بالك من نفسك؟

ردت «**سمر**» وهي تحتضر بأنفاس مُتقطعة:

ـ ما كنتش أعرف يا زينب إن الغدر هيجي من بين صفوفنا، ما كنتش أعرف اللي مهمته الحفاظ على أرواحنا هو

اللي بإيده بيكون سبب في موتنا، ما كنتش افتكر ابدًا ان نهايتي هتكون على يد واحد المفروض إنه ابن بلدي.

اقتربت منها أكثر ورفعت رأسها نحو وجهي وبألم قُلت:

- لا يا سمر، اوعي تموتي دلوقتي، أنتِ موفتيشٍ بوعدك لما قولتلك خلي بالك من نفسك، لكن اوعديني حالًا انك تعيشي؟؟؟

نزلت من عينها اليُمنى دمعة سريعة وكأنها ترى أمامها ملائكة الرحمن وقالت:

- مش هقدر أوعدك.. مش هقدر!!

ضممت وجهها نحو صدري وصوتي قد ارتفع بالبكاء وطلبت النجدة من السماء وقلت: يااااارب

ثُم قاطعتني بأنفاسها الأخيرة:

- خلي بالك يا زينب من بنتي «**ريم**»..!!

ثُم نظرت نحوي نظرة مودع ونطقت الشهادتين سريعًا، فلم تطُل لحظات الاحتضار.. ورحلت روحها نحو خالقها فهو أرحم عليها من جميع البشر.

أمسكتُ بالكاميرا وصوَّرت هذا المشهد المبكي، فكيف لي أن أتنحَّى عن مُساندة صديقتي بعد مقتلها برصاص هذا الغادر الذي لا يعرف للرحمة معنى ولا للإنسانية قيمة؟!

لقد دُفنت البراءة تحت التراب، بعدما أصبحنا في غابة كبيرة، يأكل أبناؤها بعضهم البعض، شعارها: البقاء للأقوى، أو لمن يمتلك الرصاص في جيبه!



ليس سرًّا يا عزيزي أن الحدائق ما هي إلا في الأصل مقابر، وليس سرًّا أن هذه الليلة هي أتعس ليلة في حياتي على الإطلاق، تمنيتُ أن أرى نفسي في عينيه، فأغمض عينيه، تمنيت أن أرى نفسي بين ذراعيه، فأدار عني وجهه، وعندما فتح عينيه والتفت نحوي، لم يبصرني أمامه وأبصرها، عشقته كعشقي لوطني وصارت نبضاتي ملكًا لهما، ودمعاتي وعذاباتي، أشتاق لوطنٍ صرتُ به غريبة ولحبيب صار عني بعيدًا، أشتاق لهما شوق المُعذَّب على الأرض، وعندما أغفو عنهما لوهلة، أجدني أشتاق لعذاباتي.

ليلة منتصف مارس هي الليلة الأكثر تعاسة في حياتي على الإطلاق، ليلة بلا قمر، سماؤها خالية من النجوم، يكسوها الضباب ووجوه البوم، فكانت ليلة عُرس حبيبي على أكثر امرأة كرهتها، على الرغم من أني لم أقابلها بعدُ، ولا حتى أعرف ما اسمها؛ فمن سرقت حبيبي هي أكثر النساء استحقاقًا لبُغضي وكُرهي، وكنت

من المدعوين لهذا الحفل الذي ضم كمًا لا بأس به من وسائل الإعلام والصحافة وغيرهما.

لماذا لم أكن ابنة صاحب القناة التي يعمل بها نجم ويوقعني الحظ لأكون من نصيبه؟ لماذا لم يبصرني أمامه؟ لماذا لم يخفق قلبه لأجلي؟ لماذا لم أجلس بجانبه هذه الليلة، هذه الليلة فقط، ونتشارك الفرح؟ لماذا يا قلبي.. أنت قلبي؟

بماذا إذًا أدعو لنجم الدين؟ فكل دعاء له يُعتبر دعاءً عليَّ، فإن دعوت له بإتمام فرحته في ليلة زفافه، كأنني دعوت على نفسي بالتعاسة باقي الأيام، وإن دعوت له بالإنجاب منها، كأنني دعوت على نفسي بالوحدة.

لقد فشلتُ في جعل قلبه يخفق بحروف اسمي، لقد فشلت في أن أسكن فكره، لقد فشلتِ الأماكن في جمعنا ذات صدفة عابرة أو غير عابرة، لقد فشلت الساعات في تواعدنا معًا، فشلت وفشلت وكفى بنجم نجاحًا، ويا أهلًا بالفشل.

سئمتُ الحديث مع نفسي لساعاتٍ طوال، وهنالك المزيد من الكلام داخلي، فهل يكفي هذا القدر من الألم؟ هل يسمح الزمان بالوقوف عند هذا الحد من العمُر؟ هل لي أن أطلق صافرة نهايتي؟ فكل بداية لها نهاية.. أين إذًا نهاية آلامي؟ أعلم جيدًا أن نهايتي بيد خالقي كما كانت بدايتي، فليس لنا التدخل في أشياء قد رسمها القدر، وعلينا أن نصمت ونحتسب.

تكتظ الشوارع بالبشرِ، وقد ملأ الصخب مسامعي، استدرتُ يمينًا نحو الجانب الذي به محال مُخصصة لبيع فساتين الزفاف والسهرة، لم أمنع عينيَّ من النظر إلى هذه الفساتين البيضاء، ورأيتني داخل كل فستان منها، دخلت أحد هذه المحال، وجرَّبت على جسدي ثلاثة من أجمل فساتين السهرة، حتى اقتنعت بأحدها واشتريته، وكان لونه أحمرَ ناصعًا، وذهبت إلى الجهة المُقابلة من الشارع، نحو محل مُخصص لبيع العصائر المُنعشة، وشربت كوبًا كبيرًا من عصير القصب الذي أعشقه، ودخلت إلى أحد محال الكعك والفطائر والمعجنات، واشتريت قطعة متوسطة من الشيكولاتة اللذيذة، ووجدت على يساري محلًّا لبيع المشاوي، تفوح منه رائحة أنفاس الجائعين، لكن معدتي قد امتلأت عن آخرها، فسأكتفي بهذا القدر من السعادة، وكأنني أردتُ فقط أن أثبت لنفسي أن السعادة ليست متوقفة على أحد، فبيديك أن تخلق لنفسك ذكريات جديدة مُبهجة ولحظات من النشوة وأنت تحتسي كوبًا باردًا من العصير أو عند شرائك قطعة من الحلوى الشهية وأشياء أخرى، عليك فقط أن تُقبِل على الحياة ولن تندم.

تعجبت لحال بعضهم ممَّن تضج بطونهم من نوافذ وأبواب محال الطعام، وكأن الطعام ملاذهم الوحيد وكأنهم يجلسون في مُسابقة لأكبر بطن يلتهم الطعام دون ترك مساحة للتنفس؛ فحبهم لبطونهم قد غطَّى على حب قلبهم إن كانوا يعلمون بهذا الحب الثاني من الأساس.

سرت أتأمَّل ملامح الرجال، لم يلفت انتباهي أحدهم ولم أرَ في أعينهم تلك النظرة التي قتلتني ذات ليلة، وكأنني أبحث عن المُستحيل؛ فرجل الأقدار من صُنع إلهي فريد من نوعه لا شبيه له، وتكوينه فوق وصف كُل البشر.. أحبك أيها النجم.. ليتك تعلم!

لقد نفد صبري بهذا العالم، كُل الخلق يحبون ويتزوجون وينجبون، يضحكون ويمرحون، يأكلون ويشربون، يتعاشرون مع أنصافهم، يركضون نحو العمل نهارًا وينامون ببالٍ خالٍ ليلًا، يُسافرون ويعودون، هل تستحق الحياة كُل هذه المشاق، ونحن نعلم أن من سبقونا نائمون الآن تحت التراب، وأن أشياءهم باتت ملكنا، وآثار أقدامهم قد تلاشت بآثار أقدامنا؟! لِمَ كُل هذه المُعاناة والنهاية تقترب يومًا بعد يوم؟! لِمَ كُل هذا العشق وكُلنا مُفارقون، كلنا راحلون، كلنا أموات؟!

مضيت في طريقي، ودخلت أكبر محل للحقائب والأحذية الفخمة، لا بدَّ أن أكون أجمل من عروسته تلك الليلة، لا بدَّ أن أجعله يندم على أنه لم يقع اختياره عليَّ، ويراني أجمل من أي مرة سبقت.

ما هذا التفكير؟ كيف أقنع نفسي بمثل هذه الأكاذيب؟ كيف للأمل أن يتشبث بي حتى اللحظات الأخيرة؟ نجم.. لم يكن لي ولن يكون. هذه هي الحقيقة الوحيدة التي لا مهرب منها، ولا جدال فيها!!

عُدت إلى البيت قُبيل غروب الشمس بدقائق، تحممت بماء الورد، ونثرت رائحة الياسمين على جسدي، وصففتُ شعري بعدما ارتديت فستان السهرة الأحمر اللامع، سأبدو جميلة لنفسي دون غيري وكفى. طبعت قُبلة على جبين يُسر بعدما أخبرتها بذهابي لحفل زفاف نجم الدين كامل، فدعت لي صدقًا:

- يااارب أشوفك يا زينب في فُستانك الأبيض.. أجمل عروسة على الأرض على اللي يخليكِ تحبيه من كتر حُبه فيكِ..

تمنت يسر لي الزواج بمن يعوِّضني حبُّه فشلي في حُبي، وأخفقت في تيقنها بأنني أصبت بالعمى وعينيَّ باتتا لا تريان أي رجلٍ سواه.

- قلبي مش شايف غيره يا أمي..
- قلبك أعمى.. مش شايف حتى عيوبه، راجل زيه مليان عيوب.
- اللي بيحب بيشوف حبيبه أحسن الناس.. وكأنه ملاك بين بشر!
- ربنا مقلب القلوب.. وزي ما زرع حبه في قلبك قادر ينزعه منك يا بنتي.

قبّلت أمي وعانقتها، فمحظوظ من لديه انسان قريب منه، يشعر به، يعيش نفس حالته، يتأثر بأوجاعه، يُهدأ من آلامه، يُخبره

أن العالم بسيط بل أبسط وأتفه من كل تعقيدات البشر، مع أننا نعلم أن حديثنا لا يُغير شيئا بالواقع، لكنها مشاعر الراحة بعد الحديث تكفي لنكمل ونحتمل، والأكثر حظًا عندما يكون هذا الانسان الأقرب إليك هو أمك، فكم كنت محظوظة بأمي!

تضج قاعة الزفاف بالموسيقى الصاخبة والأضواء المتداخلة، السماء تبتسم، المقاعد تبتسم، جميع البشر يبتسمون، ابتسمت مثلهم، فكيف لا أبتسم قبلهم وحبيبي هُناك يبتسم؟!

بدأ الحفل برقصات العروسين الهادئة، التفَّت يدا نجم حول خصر عروسته ولفّت هي يديها حول رقبته، وبهدوء شديد اقتربا من بعضهما حتى عانقها بقوة أمام العالم وقبَّل جبينها وسط تصفيق الجميع، فلم أقاوم دموعي حينها، يالغبائي! أهذا وقت للدموع؟ ذهبتُ بعيدًا عن الأضواء والضوضاء، جففت دمعي وعدت ثانَية كي لا تفوتني أي لقطة أو مشهد أراني بطلته في الخيال. فما أصدق من خيالنا! هذا الصديق الوفي الذي يجعلنا نعيش ما اغتصبه منا واقعنا، فقلبي قنوع.. يكفيه ويكفيني مُصادقة الخيال!

نظراتي نحوهما مُتلاحقة بعدد اللحظات، أتأملهما من الداخل قبل الخارج: فُستان العروس، شعرها، وجهها، لون شفتيها، أنفها، قامتها.. كُل تفاصيلها، لا أشكك في ذوقِ نجم ولا أنكر أنها الأجمل، كما أنني لا أنكر أنها أكثر ثراءً مني وأن والدها أكثر نفوذًا من والدي، لا أنكر أن عينيها جذابتان بلون الطبيعة الخضراء، لقد أسر لونهما عقل نجم وجعله يعدل عن نظريته تجاه

العيون السود.. سواد شعرها أشدُّ من سواد الليل، وأنفها مُستقيم يزيد من عذوبة ملامحها، لا أنكر هذا كُله، وعليها ألا تُنكر أني أحبه أكثر منها وأكثر من النساء اللاتي قابلهن واللائي أوقعهن القدر في حُبه.

جلس العروسان على مقعديهما وأصابعهما مُتشابكة كأنهما يخشيان ابتعاد أحدهما عن الآخر لوهلة، اقتربت منهما وسلَّمت عليهما، هذه ثالث مرة تُعانق يدي يده؛ فالمرة الأولى كانت على شاطئ الإسكندرية في لقائي الأول به، والمرة الثانية في أثناء لقائنا الثاني عندما سِرنا ليلًا نحو كورنيش النيل وعُدنا.

لكن يده وكل ما به لم يعد الآن من حقي، رسمت بسمة صفراء على شفتيَّ وقلت: مبروك.

رد العريس بعد نظرة سريعة إلى عروسته:

- الله يبارك فيكِ يا زينب.. عقبالك!

قالها كأنه يدعو لي بالخير، ولم يعلم أنه يدعو عليَّ بالشر، تسللتُ عائدةً نحو المدعوين، وتلاشى جسدي في الزحام، كي أختفي عن وجهه أو ربما لأخفيه عن عيني.

دعاني زميلي آدم، أحد المُحررين بالجريدة التي أعمل بها، إلى العشاء معه في المطعم التابع لهذه القاعة، وافقتُ بلا تردد، وشبكت يدي بيده كأنني أقول للعالم ولكل البشر ولنجم قبلهم:

ـ إن كُنت ماليش أي قيمة عندك يا نجم، فقيمتي يعرفها غيرك، حتى وان كان غيرك دا هو آدم ..

التوتر يكسو وجه آدم، كأنه لا يُجيد الحديث مع الجنس الناعم، وكنت أعلم أن آدم مثال يُحتذى به في الاستقامة، يشتعل برأسه البياض الذي زاد من هيبته ووقاره، لكنه ما زال رجلًا ثلاثينيًّا، لم أرَهُ أبدًا يتحدث مع الزميلات، ولم أرَهُ يضحك، بسمته كانت عزيزة، حتى اعتقدت أن هذا الرجل مُعقَّد، فاندهشت.. كيف لشابٍّ مثله لا يفتعل حركات الشباب، وكل وقته ملك لعمله في الجريدة؟!

تصبب وجهه عرقًا، وكان الجو مُنعشًا ليس به من الحرارة ما يستدعي هذا كله، قطعت صمته وخجله وقلت:

ـ خير يا آدم.. كنت بتقول إنك عاوزني في موضوع!!

قال من دون تفكير أو تردد:

ـ عاوز أتجوزك يا زينب..

بتقول ايه؟

ـ عاوزك تكوني مراتي على سُنة الله ورسوله.

تمنيت حينها أن يسمع العالم كله بطلب آدم وكان العالم كله لي هو نجم الدين فقلت بنفسٍ راضية:

ـ موافِقة على طلبك يا آدم.

عُدنا معًا نحو صالة الزفاف، وأخبرت كُل زملائي بخطبتي على آدم، ولمحت في أعينهم سعادتهم بي عدا علاء الذي ترك المكان على الفور من دون أن يُبارك لنا، كان يبدو غريبًا بحق، لعله غضب لعدم أخذ رأيه بخطبتي، فكيف أخطو مثل هذه الخطوة وأعلن قراري هذا من دون العودة إليه؟ أظن دومًا أن ثمة نفورًا بينه وبين آدم في الجريدة، والآن قد تيقنت من هذا بالفعل، علاء غير سعيد لأجلنا، لا بُدَّ من زيارته في يومٍ ما عقب العمل، لحل الخلاف الذي بينه وبين آدم، فإنه صديقيً المُقرب قبل أي أحد وقبل آدم نفسه.

طلبني آدم للرقص.. رقصنا معًا كأي ثُنائي في الحفل بجانب نجم وعروسته، وعندما جاءت فقرة تقطيع كعكة الزفاف الضخمة المكونة من خمسة طوابق، طلبت من آدم مُغادرة المكان، فلم أحتمل رؤيته وهو يُطعمها حبات الكرز في فمها، ولم أحتمل تخيُّلاتي لكل ما سيحدث بينهما حينما ينغلق عليهما باب واحد بعد قليل.

قضيتُ ليلتي في التفكير، أتقلَّب في فراشي، وكأن به شوكًا يُمزِّق جسدي.. عندما أغلق عينيَّ، أراه خلف جفوني يضمها إلى صدره ويُعانقها.. عندما أفتحهما أراه أمامي على السقف يُقبلها ويُداعب جبينها. أتوسل إليكَ أيها النوم أن تأخذني إليك، أتوسل إليكِ أيتها السماء أن تذهبي بسوادك بعيدًا وتُلبِّي نداء الشروق، أتوسل إليك يا وقتُ أن تمضي. أتمنى أن تقذفَ قنبلةٌ رأسي كي

تخمد أفكاره، أو كي توقع السقف أرضًا وتخفيني، تُمزقني، تجعلني أتلاشى ثم أتلاشى ثم لا أكون.

زرعت رأسي تحت صنبور الماء البارد، وحينها شعرت بالإعياء، وتناولت قرصًا من المُسكن وآخرَ من المنوم على جرعة واحدة وهدأت شيئًا فشيئًا حتى تمكنت من النوم.



قهرني غيابك يا صديق؛ فلقد غبتَ طويلًا، وغابت معك ضحكتي، أتردد في زيارتك، أخشى أن يكون قد أصابك مكروه ما، تتدفق الأسباب في رأسي: هل سافرت؟ هل تزوجت؟ أين أنت يا «**علاء**»؟

قتلت ترددي هذا وذهبت إليه حيث سكنه بشارع المُعز، ذاك الشارع الذي طالما تنشَّقت به عبق التاريخ الذي يزرع داخلي الراحة الكبيرة، به من المُبهرات ما يشد كل حواسي، أرى فيه ما لا يراه غيري، كأن سكانه القدامى يسيرون من حولي، يلتفتون لي بدهشة من غرابة ملابسي الحديثة التي لا تُشبه ملابسهم، وأنظر نحوهم ببسمة عريضة وعلى شفتيَّ أترحم عليهم وعلى نفسي من بعدي.

وصلت إلى بيت علاء وقرعت الجرس عدة مرات حتى ظننت ألَّا أحد بالداخل، فتح لي صديقي غير متوقع زيارتي، رحَّب بي

وأدخلني حيث الغرفة الخاصة بالضيوف، سألته عن ابنة صديقتنا سمر:

ـ فين ريم وفين عمك؟

ـ ريم تعبت من اللعب، فدخلتها أوضتها عشان تنام وعمي راح يجيب لنا العشا.

ـ مُمكن أروح أشوف ريم؟

ـ طبعًا يا زينب.. البيت بيتك.

نائمة الطفلة في الفراش بلا حول ولا قوة، وبلا أم أو أب، بعدما هاجر والدها خارج البلد وماتت أمها بطلقة غادرة، وحينها أصر علاء أن يأخذ الطفلة معه يُربيها ويكون لها الأهل والسند، قبّلت جبينها وعدت إلى علاء.

تطرقت إلى الموضوع دون مُقدمات وسألته عن سبب غيابه المتواصل عن العمل وعني:

ـ مالك يا علاء؟

فردد ببلادة:

ـ ما تشغليش بالك أنتِ يا زينب.

تضايقت لوهلة؛ لأنني شعرت بقلة أهميتي لديه؛ فكل أسراري يعلمها، في الوقت الذي يُخفي فيه عني أسراره، فحاولت ثانيةً التقرب إليه وقلت بتودد:

ـ بتخبي عليا يا علاء؟ بتخبي على أختك؟

- أنتِ مش أختي يا زينب وأنا معنديش أخوات بنات.

صدمني رده كثيرًا؛ لأنه لم يعتبرني أخته، في الوقت الذي رأيته فيه أخي الثاني، وحينها وجدت عمه يتقدم نحونا، تقفز من عينيه فرحة كبيرة، سلَّم عليَّ وأخرج من جيبه تذكرتي قطار وقال مُبتهجًا:

- لقيت آخر تذكرتين في قطر بُكرة.

قُمت من مكاني وقلت مُستفهمة:

- مسافرين فين يا عمي؟

رد العم الذي ما زالت البسمة ملء وجهه:

- سوهاج.. للأهل والعيلة.

ثُم ذهب الرجل الطيب لتجهيز العشاء بنفسه، وأصرَّ على عشائي معهما، عدت ثانية للحديث إلى علاء، فأعطى لي ظهره كي يذهب لمساعدة عمه، وقبل خروجه من الغرفة قطعت سيره بالسؤال نفسه:

- كإنك بتتهرب مني أو يمكن مش طايقني.. ايه اللي فيك يا علاء؟!

فأدار وجهه نحوي وأخذ شهيقًا وقال:

- أنتِ اللي فيّا يا زينب.

هذا ما كُنت أخشاه دومًا، أن تتطور العلاقة بيننا فتأخذ شكلًا غير الصداقة من ناحيته دون ناحيتي، فليس بعلاء عيب، ولكن

لأن قلبي لا يرى ولا يسمع ولا يعشق سوى رجل واحد، رجل واحد بكلِّ الرجال.

نظرت إلى الأرض وكأنني أتأمل فراشها العريض، ثُم قطع علاء صمته وصمتي وطلب:

- اسمعيني يا زينب للآخر وما تقاطعينيش.
- سمعاك يا علاء.. اتفضل أتكلم!
- أنتِ عارفه كام مرة قتلتيني فيها؟

هممت بالرد، فوضع يده على فمي كي لا أتكلم وأكمل:

- قتلتيني بعدد المرات اللي ذكرتِ فيها اسم نجم الدين، اتوجعت اوي من معرفتي بتفاصيل قلبك لراجل غيري، أنا فاكر كويس اوي اليوم اللي كُنتِ فيه مُنهارة وفتحتي لي قلبك للمرة الأولى وكلمتيني عن تفاصيل أول لقاء يجمعك بنجم، استغربت اوي وسألت نفسي ازاي البنت الوديعة تسلم نفسها وجسمها لراجل أول مرة تقابله لمجرد إنك حبتيه من خلال شاشة التليفزيون؟
- أنت غلطان في ظنك بيّا يا علاء، أنا منكرش إني روحت معاه شقته وكنت عارفه نواياه وتفكيره وقتها، أنا روحت بس عشان أديله درس عُمره ما ينساه في حياته، وزي ما في كتير استسلموا له، في كمان كتير شرفهم أغلى من أي حاجة في الدنيا..

- مصدقك لأني عُمري ما شوفتك غير ضحية زيي، أنتِ ضحية لحب من طرف واحد لنجم وأنا ضحية لحب من طرف واحد ليكِ، ومحدش في الدنيا دي كُلها بيختار مين يحب ومين يكره، في الحب احنا مُجبرين ما نُملكش حق الاختيار.
- ليه مقولتليش عن مشاعرك دي قبل كدا يا علاء؟
- خوفت يا زينب.. وفضّلت إني أستمر معاكِ بصفتي صديق للأبد، أحسن ما تعرفي إنك بالنسبة لي أكتر بكتير ووقتها تبعدي.
- ودلوقتي يا علاء.. مشاعرك من ناحيتي ايه؟
- نفس مشاعرك لنجم الدين!!
- أنا آسفه.. حقيقي آسفه، أنا عُمري ما شوفتك أكتر من صديق.
- المهم إنك شيفاني حاجة.. وأهو حالي أفضل من حالك، أنتِ شيفاني صديق، واللي بتحبيه مش شايفك خالص..
- مشاعرنا مش مُجرد زرار نضغط عليه نغيرها أو نقللها أو نزودها، ولا إحساس الحُب زي إحساس البرد أو الحر، نكتر في اللبس أو نخففه عشان نقضي عليه، مش بإيدي أعذب نفسي، مش بإيدي أبطل أحبه!!

ـ عارفه يا زينب لو أنا عندي الأوبشن دا بتاع التحكم في مشاعري.. كنت اخترت إني برضه أحبك.. تقولي ايه.. غاوي عذاب!

ـ وأنا لو عندي الأوبشن دا.. كنت اخترت أحبك أنت يا علاء..

ـ ياااه.. أحبك أنت يا علاء.. وكإنك رديتي فيّا روحي يا زينب مع إني عارف إن دا مُستحيل وإنك بتجبري بخاطري.. ربنا يجبر بخاطر قلبك يااارب!!

يا لها من دعوة صادقة نطق بها علاء «**أن يجبر الله بخاطر قلبي**» فقلبي تحمل كثيرًا، تعذب كثيرًا، انتظر كثيرًا.. كم أحتاج إلى جبر يليق به من الله!!

سمعنا صوتًا بالخارج يُنادي بلهفة الجياع:

ـ مائدة العشاء في انتظاركم يا حلوين!

خرجت من غُرفة الضيوف واعتذرت لتراجعي عن العشاء معهما لتأخر الوقت بالفعل، وسلَّمت على الاثنين، وأوصلني علاء حتى الباب، وقال مُتأسفًا:

ـ سامحيني، مش هقدر أحضر فرحك، هكون مسافر مع عمي وريم.

علمتُ أن «**علاء**» لم يُرِد حضور زفافي، ليس بحجة سفره أكثر من انزعاجه النفسي عند رؤيتي بجانب غيره، فرد مُبتسمًا مُباركًا بنبرة مُخالفة:

ـ مبروك يا زينب.

تنهدت وقلت:

ـ ترجع لنا بالسلامة يا صديقي من سفرك.

وحدثت نفسي أنه لو امتلك علاء الجرأة والشجاعة الكافية وصارحني بحبه لوافقت عليه كشريك حياتي، كي أعوِّضه عن أهله وأنسيه ظروف يُتمه ونُربي بيننا ريم، فلا فرق عندي بين آدم أو علاء أو أي رجل آخر، لكن علاء طوال عمره متردد ولا يتخذ قرارًا إلا بصعوبة، وموقفه دائمًا مُحايد، وآدم قد سبقه في طلبه، والأمر قد قُضي، وحفل زفافي في الغد القريب.



طرأ شيءٌ ما في رأسي، لم أستطِع الهرب منه، أقدم نحوه على مضض، به نوع من السعادة، لكنها سعادة زائفة، ذلك المشروع الخاسر الرابح، وإن كانت خسارته أكبر من ربحه، سِرتُ وراء هاجسي الأعظم وكأنني أردت الانتقام من نفسي بالزواج من دون حب؛ فأنا التي ترى في هواجسها ضرورة وجبت التنفيذ.

لم أجد خيارًا آخرَ إلَّا أن أوافق على هذه الزيجة، بعد حسابات عدة دارت في ذهني، من حيث الأخلاق والنسب والدراسة والعمل، فكان به من الميزات التي تُجبر أي فتاة على الموافقة عليه، فإن لم يكن نجم الدين زوجي، فالرجال كلهم إذًا سواء.

أقدمتُ على هذه الخطوة بعقلي، وقلبي ما زال يخفق بحب الرجل المُستحيل، والنجم البعيد، الذي لم تتمكن الأيام من محو ذكراه من رأسي؛ فكل الأشياء مستودعها النسيان، عدا نجم الدين، هذا الرجل الذي كُلما قررت نسيانه.. أجدني أتذكره أكثر، وأشتمُّ رائحته في كُل سيجارة من حولي، وأرى ملامحه أمامي على

الجُدران، فإنه الحلم الأبدي الذي لا صحوة منه، ورجل الأقدار كما أناديه في صمتي.

دخلنا البيت، لم أكن مثل أي فتاة سعيدة بليلة عمرها، ولم ينتَبني ما يجتاح أجساد الفتيات من قشعريرة ولهفة وخوف جميل من حدوث ما هو متوقَّع ومعلوم، بل كُنت مُقتنعة وراضية بخُطى القدر، مع علمي بأن القناعة وحدها غير كافية لإحداث السعادة، كُنت أحمل في داخلي برودًا غير عادي، غير عابئة بما حولي وبمن حولي، أرى كُل الضحكات صفراء، وكُل التهاني والمُباركات نفاقًا لا بُدَّ منه، خلت تلك الليلة من روحها.. حتى أنا، صرتُ جسدًا بلا روح.

تناول آدم العشاء على عجل، أما أنا فكنت أبتلع الطعام بالكاد، كأن حلقي قد سُدَّ وكأن معدتي قد حوت جَمَلين كاملين.

كُنتِ زي القمر يا زينب في الفرح.

شُكرًا يا آدم..

- في حد يقول لحبيبه «**شُكرًا**»، ولو هنقول لبعض شُكرًا، يبقى أنا اللي أشكرك يا زينب.
- على ايه يا آدم.
- إنك وافقتي تكوني مراتي.

ابتسمت ابتسامة باهته وقرّب بالتدريج يده من يدي ووجهه من وجهي وجسده من جسدي وفي لحظة وجدت نفسي على فراش

بارد في هذه الساعة الباردة، أرى نفسي في المرآة المجاورة، كلوح من الثلج الصُّلب، أو كدُمية مفككة بها الكثير من الضعف، أو كقطعة من القماش البالية وآدم يُمزقها ويحيكها كما يرُيد.

مرَّ الأمر سريعًا، وذهب آدم في نوم عميق بعد أن أدى مُهمته في ليلتنا الأولى، ومكثت مع حالي، كُنتُ أرى ملامح نجم الدين على عقارب الساعة، كم كانت ثقيلة دقاتها وأخيرًا؛ لاح ضيُّ النهار عبر النافذة الزُجاجية، انتفضتُ من غفوتي المُتيقظة، وسكبت الماء الدافئ على جسدي كي أزيح عنه كُل مشاعري المُتبلِّدة.

منحني آدم حُبَّه وحنانه، بخاتم ذهبي قد ربطني به، ومنحتُه جسدًا باردًا من دون مشاعر، أعلم أنني ظلمته؛ فمشاعري ملك غيره، لكني قبل أن أظلمه ظلمت نفسي أولًا، فما أصعب أن تتوسد ذراع إنسان وذهنك يرحل بعيدًا حيث آخر، وما أصعب أن يُخلص قلب المرأة في عشق رجل ليس بزوجها.

سأمنحك يا آدم جسدي، افعلْ به ما تشاء، وسامحْني؛ فقلبي ليس لك من البداية، فكل ما بي لا يرى إلا نجم، هذا النجم بعيد المنال الذي يسكن سمائي، فيكفيني أن أراه مُنيرًا كُل ليلة يطل عليَّ عبر نافذتي الوحيدة، تلك أمنيتي التي أحيا لأجلها أعوامي المقبلة.



خلا الفتى الجميل، الذي لم يتجاوز التاسعة عشرة من عمره، في غرفته ليومين من دون طعام؛ فالقدر لم يُسانده في تحقيق حلمه الصغير كطبيب بشري، خاصة للأطفال، وجاء تنسيقه على كلية الطب البيطري، فكان عشقه للأطفال بلا حدود، وفرحته الحقيقية حينما يكون سببًا في إسعاد أحدهم ولو بقطعة من الحلوى، واليوم المقدس لديه، الذي لا ينساه أبدًا كيوم ميلاده وينتظره من العام للعام، هو يوم اليتيم، أول جمعة من أبريل، يقضي اليوم كله مع اليتامى ويعود بعين دامعة وأخرى باسمة، وعندما سألته ذات مرة عن حلمه الكبير، أجابني:

ـ اتجوز يا زينب وأكون أب لعشر ولاد وبنات.

ضحكت على حلم سابق موعده، فلا زال عبد الرحمن صغيرًا أو ربما لأنني لازلت أراه بعيني هكذا.

حملت طبقًا من مُثلثات البيتزا الذي صنعته له خصيصًا وطرقت بابه ودخلت، فإذا به يجلس أمام النافذة؛ حيث هواء الصيف المُنعش ونسائمه الوديعة:

ـ أخويا الصُغير.. وحشتني!!

ـ سامحيني يا زينب.. انا عارف إني مقصر في السؤال عليكِ، لكن أعذريني أنا مضايق شوية..

ـ غلطان يا عبد الرحمن.. ليه تزعل؟ خلي عندك قناعة إن ربنا مش بيعمل لنا أي حاجة وحشة، وان أخد مننا حاجة واحدة بيعوضنا بحاجات كتيييير أجمل.

ـ لكن الكُلية دي مش هي اللي انا عاوزها.

فقلت مازحة، مُمسكة بطرف أذنه كأنني أنصح صغيري:

ـ هي الحيوانات مالهاش الحق في العلاج والحياة؟

ضحك، وكرر قولي عن قناعة:

ـ فعلا عوض ربنا أجمل بكتير لكن احنا مش بنعرف غير بعد مرور الوقت.

اقتربتُ من أخي وعانقته؛ فعناق الإخوة لا يضاهيه أي عناق آخر؛ فهو الأمان بعينه، وكأن زمام العالم في قبضة يدك والخوف لا وجود له في يومك ومُستقبلك، فسند البنت الحقيقي وملجؤها الدافئ بالحياة بعد أبيها هو أخوها.

لم ينَم الفتى ليلته إلا بعد أدائه صلاة الفجر، فكان رابعنا وإمامنا، وبعدها قبَّل يدَي أمي وأبي ودلف نحو فراشه بحجةِ النوم وفي واقع الأمر، كان هذا الوقت هو موعد مُحادثته الصباحية لمن دقَّ لها قلبه، فلم يخبئ أخي شيئًا عني، وكل أسراره في بئرٍ سحيقةٍ منبعها ذهني.

كانت «**رضوى**» جارتنا مُنذ عامين، ولم نعلم بهذا إلا من مُدة وجيزة عن طريق الصدفة، عندما طرقت والدتها بابنا ذات ليلة، تبحث عن أحدٍ لديه معرفة بكيفية إعطاء حقنة مُهدئة لابنتها الوحيدة، بعدما أتتها نوبة من الصرع غير المُزمن، هذه النوبة تأتيها من وقتٍ لآخر بعدما انفصل والداها عن بعضهما بعد مُشاجراتٍ عنيفة في بيتهم القديم الذي يقبع في أحد شوارع المنيا، وبعدها قررتا العيش في القاهرة؛ حيث عمل والدتها الجديد في وزارة التموين، حينها أيقظنا «**عبد الرحمن**» من نومِهِ بالكاد؛ فقد كان يُمارس هوايته طوال الليل ويلعب كُرة القدم مع زملائه في شارعنا الكبير، قطعنا حبال النوم عن عينَي أخي وذهب حينها مع جارتنا الطيبة كي يُعطي لابنتها الحُقنة.. وعندما عاد، عاد جسدًا من دون قلب؛ فقلبه تركه عند عتبات بيت الجيران.

لم يكن هُناك شكٌّ في أن أخي هو النصف الآخر المُكمِّل لابنة جارتنا المُدللة، فذاق القلبان حلاوة الحب في سن صغيرة، ومارس أخي معها دور الأب وتعلَّم على يديها معنى المسئولية، سيمرُّ الحب بينهما بجميع مراحله على مهلٍ، ومهما طالت لحظاته،

لا يشعر المحبون بعامل الزمن، ومهما كانت أحاديثهم كثيرة، لا ينتهي الكلام ولا يقف عند حدٍّ مُعيَّن، وعندما يوجد الحب، كُل الأشياء تصير أجمل، فعين العاشق جميلة ترى كُل الأشياء جميلة.

كثيرًا كُنت أتساءل: من أين يأتي أخي بالكلام الذي يجعله يقضي ليالي بأكملها في الحديث مع حبيبته؟ ألا يمل؟ وعندما خفق قلبي ل»نجم الدين» صرت عاشقة كأخي، مع اختلاف الأمر.. إنه يتحدث مع حبيبته ويأتيه جوابها، أما أنا فكنت أتحدث مع حالي بلا جواب.

وصارت علاقتنا بالجيران الأحباء قوية، وتصادقت «**يُسر**» و»نادية» إلى الحد الذي لم يمر يوم إلا وتقابلتا فيه في بيت إحداهما، كُنت دومًا أتلصص إلى كلامهما من خلف ستارتي، ساعة أضحك لنكاتهما، وساعة يُحزنني حالهما عند استرجاعهما أيام الصبا والشباب، وساعة يسكنني الغضب عندما تتحدثان عن حال البلاد، وما زال حديث الأمس بينهما عالقًا في ذهني.. عندما قالت أمي مازحة:

ـ ما ألاقيش عندك شوية زيت يا نادية لحبة المحشي اللي عندي بما إنك موظفة كبيرة في التموين؟

قالت «**نادية**» مُتبادلة الضحك:

ـ إنزلي هاتيه من السوق!

ـ دا سعره زاد أوي.

- هو في حاجة أصلاً سعرها ما زادش.. كله زاد وولع نار.

خرجت من خلف ستارتي وقطعت حينها حديثهما وقلت:

- البني آدم .. السلعة الوحيدة اللي بترخص يوم عن يوم.

أدركت «**يُسر**» خطورة الموقف وخشيت عليَّ حتى من جارتها، فقالت لي بأمرٍ كأنها تُريدني أن أذهب:

- روحي يا زينب جهزي العشا، جوزك على وصول!

لكن الجارة العزيزة نادت على ابنتها «**رضوى**» التي كانت تجلس مع أخي في النافذة، واستأذنت لتأخُّر الوقت.. وقبل أن ترحل، قالت بخوفٍ عليّ:

- ارحمي نفسك يا زينب، وما تحمليهاش فوق طاقتها يا بنتي، أنتِ لسه صغيرة على كل الحزن اللي ساكن عينيكِ.

ثُم ربتت على كتفي، كأنها تُخمد من بركاني، ولم تعلم أنها تنفخ الهواء في فقاعة من الجلد الغليظ، وكل كلامها مدخله ومخرجه من نفس الأذن.. وفي الوقت نفسه، لم أكن أتعمد تجاهل قولها وخوفها، بل كان بداخلي إيمان وعزيمة بالتغيير وكأنني ملكت الكون كله، أو أن الإصلاح متوقف على كلمة أو أمر مني، لم أعتنِ بنفسي؛ فخوفي على حال البلد أنساني الخوف على نفسي، فأنا لست شيطانًا أخرس، يرى الحق ولا يتكلم، نحمل النعال داخل أفواهنا وعلى عقولنا، وبات حلم الفقير قطعة من اللحمِ، وحلم كُل شابٍّ هجرة، لعله يجد وطنًا يُشبع احتياجاته

ويحتضنه ويكون أحنَّ عليه من وطنه، ويعز من قيمته وكرامته، فيغرق بعضهم في هجرة غير شرعية.

ثم يسأل أحدهم بسخافة من أمره وبسمة صفراء على وجهه: ليه تعمل كدا في نفسك أيها المواطن، ليه تزعلنا عليك وتزعل أهلك وبلدك؟ وأردُّ بتهكُّم شديد: كي يقضي عُطلته مع أقرانه، أو ربما ليتسوَّق ويحضر معه كسوة الشتاء.

ذهبت إلى «**يُسر**» و «**إبراهيم**» في صباح الجمعة لقضاء اليوم معهما بعدما سمح لي «**آدم**» بهذا.. وقد حمل الكون، مع أول قطفة شمس، آمالًا جديدة؛ فهذا اليوم من كُل أسبوع له مذاق خاص بنكهة إيمانية خالصة، وهو عيد للمُسلمين في جميع بقاع الأرض، نستهلُّه بقراءة سورة الكهف، ثُم نجتمع على طاولة الإفطار الشهي المكون من الفول الساخن بالزيت الحار وأصابع البطاطس المُقرمشة وكوب الحليب الذي يُرافقنا مُنذ نعومة أظافرنا، وعندما نفرغ من الطعام، نُعينُ «**يُسر**» في تنظيف البيت، ثم نركض نحو الاستحمام، وحينها وجدت «**عبد الرحمن**» على غير عادته، لم يتشاجر معي بلطفٍ على دخوله الحمَّام قبلي، فكان جالسًا على المقعد يستمع إلى خُطبة الجمعة عبر التلفاز، وعيناه تترغرغان بالدموعِ وسألته: مالك يا عبد الرحمن؟

- كلام الشيخ دا أثار شيء في نفسي من حُب لقاء الله.
- ويا ترى عن ايه خطبته النهاردة؟
- الشهادة!

ـ يااااه بتمناها اوي يا عبد الرحمن!!

ـ بتمناها أكتر منك يا زينب..

ثُم أمسكته من طرف ذقنه الصغيرة وقلت كأنني أمزح:

ـ أومال مين يا فندم اللي هيخلف عشر صبيان وبنات؟

تنهد أخي وقال ببسمةٍ مُفتعلة:

ـ اللي يعيش بقى يا بنتي.

أغلق أخي التلفاز وذهب إلى الحمَّام، تحمم وتوضأ وارتدى ثيابه التي اختلطت بها رائحة بخور البيت، وأطلّ على حاله في المرآة، وقبَّل يدي أمي وعند الباب عانقني وأطال العناق، ثُم ذهب للصلاة مع أبي.

عاد أبي من دون أخي، وسألته يُسر:

ـ فين عبد الرحمن يا إبراهيم.. ما رجعش معاك ليه؟

أجابها أبي:

ـ عبد الرحمن راح يزور عيسى صاحبه أصله عيان وواخد دور برد شديد.

اقترب النهار من الغروب ولم يعد أخي للبيت، والقلق سكن أمي وأبي معًا، وقالت وهي تضرب كفًا بكفٍ:

ـ أخوكِ مقالكيش انه هيروح مكان تاني النهاردة يا زينب؟

قلت كاذبة كي أنفض القلق عن رأسها:

- دا قاللي إنه هيقضي اليوم كُله مع عيسى يا ماما.

اطمأنَّت أمي قليلًا، لكن الوقت لا زال يمضي بلا رحمة، ولم يعُد أخي، وكنت أتحدث معها في أي شيء، كي أنسيها ما هي به، وأنا التي بحاجة إلى من يمدُّني بالصبر والاحتمال، ارتدى أبي جلبابه قاصدًا بيت عيسى.

أخيرًا، رن الهاتف، مؤكِّد أنه عبد الرحمن، يُطمئننا عن حاله، وحينها سيبلغنا عن سبب تغيبه طوال النهار، ردت أمي بدموعها بسرعةٍ:

- أنتَ فين يا عبد الرحمن؟

ثم وضعت كفها على سماعة الهاتف وهي تُعاتبني:

- بتكذبي عليّا يا زينب وتقوليلي إن أخوكِ هيقضي اليوم مع عيسى؟

فقلت: مين اللي معاكِ على التليفون يا ماما؟

- دا عيسى بيسألني عن أخوكِ..

ثُم رفعت كفها عن السماعة وعاودت حديثها مع عيسى:

- قوللي يا عيسى يا ابني.. عبد الرحمن مشي من عندك الساعة كام؟

سمعت أمي اجابته وكأن قلبها توقف عن النبض وروحها كادت وأن تشرد ووجهها خُطف لونه ورمت السماعة من يدها وصرخت:

ـ إلحقي يا زينب.. أخوكِ ما راحش لعيسى خالص النهاردة.

سقطت قلوبنا أرضًا؛ والقلق صار أضعافًا، حتى ملأ القلب وفاض، هرولتْ يُسر نحو غرفتها وارتدت عباءتها؛ كي تذهب بنفسها للبحث عنه، وقبل أن تفتح الباب، وجدنا أبي في وجهنا قد عاد بعد بحث غير مُجدٍ، وبعد ثوانٍ سمعنا طرقات الباب.

جففت أمي دمعاتها الساخنة بطرف ثيابها، وقال أبي برجاء:

ـ افتحي الباب يا زينب.. دا باين له أخوكِ رجع!!

لم أتردد أو أنتظر، وفتحت الباب.. لكن الطارق لم يكن أخي، كانت جارتنا وابنتها، استقبلتهما أمي بدموع عينيها ونقلت قلقها إليهما وركضت رضوى نحو النافذة التي تقبع في غرفة المُتغيِّب، تتطلع إلى المارة، تبحث بينهم عن حبيبها!

وبعدما اشتد سواد الليل وسادت العتمةُ الكونَ، أسرعت رضوى نحونا وأخبرتنا أن هُناك أحد الرجال في ثوب ميري، سمعته يسأل في الشارع عن بيت «**عبد الرحمن إبراهيم المصري**».

جُنَّ جنوننا وطِرْنَا نحو الشارع الكبير.. وعندما سألنا هذا الغريب بصوت واحد: «**فين عبد الرحمن**»؟ حنى رأسه على صدره وأخبرنا بأسى:

ـ اتفضلوا معايا لاستلام الجثة.

بعد مرور شهر.. قضيت طوال اليوم في دار الأيتام، ورأيت في ضحكاتهم فرحة أخي الشهيد، وكأن روحه تحوم حولنا في سَكينة، لقد أوحشتني يا أخي، رحلت ومعك بسماتنا، وتركت حياتنا خاوية من جمالها على عروشها، لماذا تركتنا يا عبد الرحمن؟ تمنيت الشهادة وقد كان ما تمنيت، لم أقوَ أبدًا على التخيُّل أنني لن أراك ثانية أمامي يا حبيبي، نتحدث ونمرح ونلعب، تركت يُسر تبكي بدموع مُهدرة لا فائدة منها، فلا أعادت الدموع يومًا مُفارقًا ولا أحيت ميتًا ولو كانت أنهارًا، وتركت أبي مُنكسرًا بعدما خاب رجاؤه في الدُنيا، وبفقدانك قد انقصم ظهره، وتركتَ رضوى حبيبتك بين يدي الأطباء، تُعاني نوبات من الصرع المُزمن، حتى هجرت شارعنا للأبد مع أمها عائدتين إلى المنيا حيث أبيها وأهلها، لم أجد أي مُبرر لقتلك يا أخي، فما ذنبك؟ وما خطيئتك؟ ذهبتَ سيرًا على قدميك لصلاة الجمعة وعدتَ محمولًا على الأكتاف للصلاة عليك.

حزنتَ يومًا يا أخي لعدم قبولك في الكلية التي تمنيتَها ولم تعلم أنك لن تخطو إليها أبدًا، ماذا عن حلمك الكبير بالزواج وإنجاب الكثير من الأطفال؟ لماذا تخليت يا عبد الرحمن عمَّا حلمت به؟ تبًّا لكِ من رصاصة طائشة تركت جميع البشر واخترقت قلب أخي، لتسقينا من الحسرات كئوسًا، فلو كُنتَ بالفعل من بين صفوف المتظاهرين في هذه الجمعة، لوجدنا لقتلك مُبررًا، لكنك

كُنت مُجرد عابر سبيل، ألقاك الحظ للسير في هذا الشارع لتلقى حتفك. لن أنساك يا عبد الرحمن، ولن أنساكِ يا سمر.



جلستُ ليلًا على طاولة المستشرف المطل على الشارع الكبير بصحبة الكيك والعصائر، أحتفل مع آدم بعيد ميلاده، اقترب نحوي وأمسك يدي بكفه اليمنى وكفه الأخرى يمررها على وجهي، نظر إليَّ بعمقٍ وقال:

ـ أنا عارف كويس اووي إنك بتكرهي الهدايا المادية.. فكرت كتير ايه اللي مُمكن أقدمهولك ويسعدك.. مالقتش حاجة أكبر وأكتر من حُبي ليكِ.

ابتسمت وقلت:

ـ طبعًا حُبك ليّ أجمل هدية.. لكن دا عيد ميلادك، وأنا المفروض اللي أجيبلك الهدية.

ـ أنتِ عندي يا زينب أجمل هدية.

ـ لكن أنا مُصممة إني أقدملك هدية.

فرح آدم من أعماقه؛ فهذه أول مرة أقدم له فيها هدية منذ زواجنا، بل منذ تعارُفنا، تقدمت نحوه وجلست على فخذيه وأدرت يدي حول رقبته وقلت:

- هتبقى أب قُريب يا آدم!!

طار آدم من فرط سعادته وترغرغت عيناه حتى تساقطت دمعاته على بطني الصغير، وأخذ يُمرر يده عليَّ بلُطفٍ، وأحسست في هذه اللحظة بنبضٍ ضعيف داخلي، فقلت: ابنك بدأ يعترض ويطالب بحقه في الحياة.

قال بضحكٍ: كله إلا ابني، خليه يعترض براحته.

قلت بحزم: غلطان يا آدم.. اللي بيعترض أيامنا دي أو حتى بيفكر مُجرًد التفكير في الاعتراض، بتسخط عليه الأقدار، ويغضب منه أسياد الأرض، ويكون مصيره الجحيم، علمه ازاي يبقى ساكت وقت الكلام، علمه ازاي يمشي جنب الحيط وقت الزحام، علمه ان الحياة غالية وعشان يعيش لازم يسكت.

- كلامك غير مُبشر يا زينب.. سيبك من الكلام دا، وما تكدريش علينا ليلتنا وفرحتي بخبر حملك.

- تفتكر إن حياتنا مش متكدرة؟ مين فينا لسه بيتمنى يكمل حياته بعد ما عرف خباياها؟ مين فينا عاش طول عمره فاكر ان غيره بيفتكره وهو أصلاً مخلوق للنسيان؟ مين فينا اختار يعيش ضعيف مسلوب الإرادة أخرس.. أنا خايفة أووي على ابننا يا آدم من الحياة دي..!!

ـ أنتِ عاوزه ايه يا زينب؟ بتفكري في أيه؟

ـ بفكر في رحمة طفلنا.

ـ تُقصدي إنك بتفكري تقتليه بإيدك قبل ما أشيله على إيدي؟ هي دي الرحمة بالنسبة لك؟ أنتِ إتجننتي ولا إيه؟ فين عقلك؟

ـ أنت عارف إني بحب الأطفال، وعلى قد حُبي ليهم بيكون خوفي عليهم.

رأيتُ حينها الغضب ينسكب من بين حاجبي آدم، وقال خارجًا عن صوابه ربما ليُعيدني إلى صوابي بنبرة أقرب إلى التهديد:

ـ لو عملتي أي مكروه في ابني يا زينب.. هيكون دا فراق بيني وبينك.

أراد آدم أن يُحقق حلمه الكبير على يدي، فماذا عن حلمي أنا؟ كيف لي أن أودع صغيرًا في أحشائي وأنا التي بحاجة إلى من ينزع مني كُل تعاساتي؟ كيف لي أن أربي طفلًا وأنا التي بحاجة إلى التدليل؟ كيف لي أن أتحمَّل المسئولية ومسئوليتي تجاه نفسي تحني ظهري؟ كيف لي أن أستسلم للواقع الروتيني والملل كزوجة وأمٍّ وحياة عائلية وأنا التي أنادي دومًا بالحرية؟ كيف لي أن أحمل طفلًا داخلي وفي قلبي أحمل حبي لنجم الدين؟ كيف لي أن أكدر صفو زوجي هذه الليلة وأقلل من قدر فرحته؟

أصبحت كُل الأشياء جامدة، الثبات سمة الأيام، الأحداث لم تتغيَّر، المشهد قائم من دون حراك، فما أُمسي عليه أجده حين أصبح، أقضي نهاري كخادمة في بيتي بعدما أمرني آدم بأخذ إجازة من عملي لحين انقضاء أشهر الحمل، خوفًا على هذا الرباط القوي القادم أكثر من خوفه عليَّ، وأقضي ليلي كمدللة لرغباته حتى يفرغ شهوته داخلي ويذهب في نومه ويتركني كأي قطعة أثاث لا قيمة لها بعدما يسلب قيمتها، أجلس في الشرفة أتأمل سكون الكون، أفكر حتى ظننت أن التفكير سيقتلني، القمر محاق باستمرار في عيني، السماء تشع ضبابًا، العصافير غادرت أشجارها، كل ما حولي يبعث في نفسي الكآبة، وكأن الطبيعة غاضبة لأجلي.



ـ مالك يا زينب.. كل ما أقرب منك تبعدي.. هل دا بسبب الحمل وأعراضه اللي بتخليكِ تفقدي الشهية ناحية كُل حاجة وأولهم أنا؟

ـ سيبني وحدي يا آدم دلوقتي.. مش عاوزه أتكلم مع حد!!

ـ حد؟ أنا جوزك وحبيبك يا زينب مش حد!!

نظرت إليه مُستنكرة وكأنني أكذِّبه، فسألني مُستفهمًا:

ـ مش أنا حبيبك يا زينب؟

لم أُجِبه ثانية، فلقد سئمت أسئلته المتواصلة تلك الليلة، فأكمل:

ـ لو أنا مش مالك لقلبك.. فكل جزء فيكِ ملكي وحدي.

لم أهتم بحديثه، وشردت عيناي حيث الساعة المُعلقة، فلقد حان موعد برنامج نجم الدين، تركت آدم لحاله بغرفة النوم بعد أن أخمدت رغبته صوبي بعدما كان ينوي فعل شيء ما يكمن

في نفسه ويسيطر على فكره ونصفه السفلي، ودلفت نحو غُرفة الأطفال التي جهَّزها بأثمن التجهيزات من حيث الأثاث ودهان الحوائط، كل حائط بلون يختلف عن الآخر، والألعاب المُلقاة هنا وهناك، أشعر براحة غير عادية عند جلوسي في هذه الغرفة وكأنها خُلقت لإزاحة أي اختناق أشعر به في هذا البيت، وبث الطمأنينة داخلي.

جلست على فراشِ صغيري الذي ما زال يسكنني، وشغّلت التلفاز بضغطة زر واحدة من على بُعدٍ، البرنامج قد بدأ بالفعل، وبدأت نظراتي تتجوَّل في أركان الشاشة الصغيرة كأنني سأخترقها، وسيم كعادته، كُل شيء به في مكانه المُناسب، بذلته تزيد من ثقته، يرتدي خاتمًا فضيًّا جديدًا، يبدو أنه هدية من إحداهن، أراقب حركاته كأنني أول مرة أراه أو كي أجد شيئًا جديدًا لم أرَه في المرات السابقة، وكأنه الشخص الوحيد في البرنامج من دون ضيوفه.

فجأة ومن دون توقع، أطفأ آدم التلفاز وقال:

ـ دا اللي سيبتيني عشانه يا زينب؟ بتحبيه لدرجة إنك علطول سرحانة وساكته والهم في عينك وبعيدة عني؟ تسلميني جسمك من غير أي رغبة وكإنك بتتفضلي عليّا؟ مُخلصة ليّا جسم وقلبك وروحك خاينين؟

ـ غلطان يا آدم في كُل كلامك.

- ما تهدميش بيتك بإيدك يا زينب، ما تخليش ابننا يعيش بين ام واب مُنفصلين، ولو مش قادرة تملي قلبك بحبك ليّا، امليه بحب ابننا اللي لسه مشافش الدُنيا.
- انت مجنون يا آدم.. هو أنا عشان متابعة برنامجه يبقى بحبه؟
- البرنامج دا مختلف عن آرائك وأفكارك وقناعاتك ومع ذلك بتتابعيه..

ثُم خرج آدم من الغرفة وعاد سريعًا وفي يده صور نجم الدين التي كنت أحتفظ بها بين ملابسي، أتطلع إليها من حين لآخر، وألقاها في وجهي، ونظر لي من أعلى إلى أسفل، شعرت حينها أنني عارية، والمكان أصبح بلا سقف يسترني.. قال مُستنكرًا:

- بتعمل ايه الصور دي عندك في دولابك؟

ضاع الكلام من لساني، وارتعشت أطرافي بعدما ضعفت حُجتي، وأيقنت أن سر الحب مهما حاولنا كتمانه، لا بُدَّ وأن تأتي لحظة وينكشف أمام العالم، وإن حجبنا أسماء من نُحبهم على ألسنتنا من دون النطق بها، ستقوم أفعالنا بالبوح عما داخلنا؛ فأفعال المُحبين دائمًا فضَّاحة، تفضح أصحابها مهما كانت مُحاولاتهم، فالحب دائمًا وأبدًا عدو الكتمان.

قلتُ محاولةً جمع شتات أمري المُبعثر، مُتقمصة دور المظلومة في الهوى، كي أكذِّب خيالاته الحقيقية وظنونه الصادقة، وعيني بعيدًا عنه كي لا تفضحني هي الأخرى:

- الصور دي من تصويري لما كُنت بغطي مؤتمر كان هو موجود فيه.. وانت عارف إني بحب أحتفظ بنسخ تانية من الصور اللي بصورها.

نظر لي غير مُصدق لقولي، وأمسك بكل الصور المُلقاة على الأرض، ومزقها قطعًا صغيرة، حاولت حينها أن أتزن نفسيًا، وألَّا أمنعه، كي لا أبدو كاذبة وتصدق شكوكه، وفي الواقع.. كان قلبي يتمزق مع كُل صورة يُمزِّقها. ألقى القطع الصغيرة في وجهي مُجددًا، لم أقاوم حينها دموعي، ووقفت كالصنم الباكي، ثم أطفأ النور، واقترب نحوي، عانقني بقوة، كاد يُكسِّر عظامي بين ذراعيه، وكأنه يُثبت لنفسه أنني ملكه وحده كأي شيء قد اشتراه من حُر ماله. وإن فاز نجم بقلبي، فهنيئًا له جسدي. وكنت أنا المُنقسمة بينهما: من أحببته ومنحته قلبي؛ لا يُحبني، ومن تزوجته ومنحته جسدي؛ لا أحبه، فما أصعب أن تحيا المرأة واقعًا خلاف ما يبطنه خيالها وتتمناه، فتحيا الواقع مع زوج ليس بحبيب وتحيا الخيال مع حبيب ليس بزوج.

وبعد أن حلَّق فوق هضابي ومُنحنياتي، وروى عطشه من كأسي؛ حيث السعادة المؤقتة والمُتعة الزائفة، استرخى على ظهره، يلتقط أنفاسه المُتعبة، ثُم ذهب في نوم عميقٍ كعادته، وكأن دوري قد انتهى في هذه اللحظة، ولم يَعلم أنَّ هذا الوقت هو أكثر الأوقات التي تحتاج فيها المرأة إلى العناق، كي تشعر بحب شريكها لها باستمرار، وأنها مطلوبة منه على الدوام، لم أستطِع أن

أقاوم دموعي ثانيةً، أسترخص نفسي كثيرًا في هذه اللحظة، وكأنه قد تم اغتصابي بطريقة شرعية على يدي زوجي.

في الصباح، استيقظ آدم وسكب الماء الدافئ على جسده واحتسى فنجانًا من القهوة من دون طعام، وما زلتُ أفتعل النوم، أراقبه بنصف عين وأذن واحدة، حتى سمعت صوت غلق باب البيت خلفه من دون أن يطبع على جبيني قُبلة الصباح كعادته، ومن دون أن يخبرني إن كان سيتناول الغداء معي أم في الجريدة.

انتفضتُ من فراشي، وفتحت نوافذ الغرفة، تنفست الحرية، أخذت حمَّامًا دافئًا، وارتديت ثوبًا قصيرًا فضفاضًا، وصنعت فنجانًا من القهوة بالحليب، اتصلت بأمي وأبي كي أقول لهما «**صباح الخير**»، فعندما نتذكر أحبابنا في بداية اليوم سنشعل وقود السعادة في قلوبهم حتى نهايته، فلا نبخل عليهم بهذا وخاصة آبائنا، حتى **لا** يبخل علينا أبنائنا بهذا.

أمسكت هاتفي وشغلّت به أغنية «**يا خلي القلب**»، وغنيت مع عبد الحليم كلماتها وفي يدي القطع الممزقة من الصور، أغني وأبكي وأجمع القطع ببعضها، وأتسائل: ليه بعذب نفسي للدرجة دي، ليه عايشه أسيرة لحب مافيهوش غير الألم، ليه قلبي مش قادر ينساه، ليه كل حاجة في حياتي واقفة على الحد دا وكأن الأرض مجابتش غيره، ليه مفيش لحظة تعدي من غير تفكير فيه، يا ترى لحد أمتى هفضل معذبه نفسي بنفسي، وشردت بالكلمات

التي أسمعها وعيشت معها حالة مؤقتة، وتخيلتني معه في «**جزيرة أبعد من الخيال لا شافتها عين ولا مرت ببال**».

بالفعل، نجح آدم في منعي من مُتابعة حلقة أمس، لكنني سأتابع إعادة البرنامج من البداية بمفردي ومن دون تعكير صفو وحدتي، جلست على مقعدي الهزاز أمام التلفاز، كان موضوع الحلقة هو «**الإلحاد**».. هذا المُصطلح المُستحدَث مؤخرًا، فلم نسمع عنه قبل ذلك أبدًا، حتى إن كان موجودًا بالفعل، يجلس نجم في المنتصف بين ضيفين، أحدهما رجل من رجال الدين، فصيح القول، قوي البرهان، لا يتفوَّه إلا صدقًا، والآخر ما هو إلا رجل مُلحد، يتنكر لكل الأديان السماوية، لا يؤمن بوجود الله، أشعر بالغثيان من قوله وضيق فكره وضعف بُرهانه، لا يتفوَّه إلا كذبًا.

يُدير نجم المُناظرة بحكمة العُقلاء، فكل قول له رد قول، وكلٌّ حسب دوره، فلا يقتطع أحدهما من وقت الآخر، ولا يتخطَّى حديثه، أو يحجر على رأيه.

عقب انتهاء البرنامج، أبدلتُ القناةَ إلى قناتي المُفضلة المُخصصة للأفلام الأبيض والأسود، غفلت عيناي في أثناء مُشاهدتي فيلم «**خان الخليلي**» الذي يُبكيني حال بطله كُلما تذكرته، هذا البطل الذي عشق حبيبته، يوصلها كُل يوم لمدرستها، يشتري لها وردة من بائعة الورد التي شهدت على قصة قلبيهما، وعندما مرض البطل ب»السُّل»، مُنعت البطلة من زيارته على

الرغم من الجيرة التي كانت بينهما، بسبب خوف أهلها على ابنتهم من العدوى، فكان ألم البطل النفسي أشد ضراوة وقسوة من ألمه الجسدي؛ لأنه اعتقد أنها تركته في وقت احتياجه إليها.

كان يتذكَّر حبيبته دومًا وهو على فراش الموت، ويُنادي عليها في أثناء وجعه وفي يقظته وفي نومه، اسمها لا يبرح فاه النازف بالدماء، ولا يبرح قلبه النازف بالخذلان، وعندما صعدت روحه وذاق كأس الموت، ذهبت حبيبته لزيارته، لكن بعد فوات الأوان!

أيقظني صوت الباب وهو يُفتح، دعكت عينيَّ كي أستوضح الرؤية، فإذا بآدم أمامي، قد أتى قبل موعده، والغضب يُشعل عينيه.

ـ مالك.. في حاجة حصلت في الجريدة؟

ـ أنا ماروحتش الشغل النهاردة يا زينب.

ـ كنت فين؟

ـ كنت عند نجم الدين كامل في مكتبه.

وقع جوابه عليَّ كصاعقة كهربائية، مزَّقت خلايا مُخي وشلَّت تفكيري. قلت بغضبٍ:

ـ ليه روحتله؟ أوعى تكون كلمته عن تخيلاتك الكذابة بحبي له، أوعى تكون نزلت من كرامتي معاه.. قوللي إنك معملتش.

ـ مسكينة أنتِ يا زينب.. بترفضي عشقي ليكِ في سبيل عشقك لواحد مش فاكر اسمك من الأساس.

ـ أتكلم يا آدم.. عملت ايه عنده؟

ـ حاضر هقولك.. روحت له وانا الشك والغضب ملوا راسي، افتكرته انه كمان بيبادلك الحُب، ووقتها كُنت هطلقك وتكملي معاه وأكمل أنا حياتي مع ابني منك، افتكرت اني انا الحاجز بينكم، لحد ما عرفت ان الحاجز دا في قلب نجم نفسه، لإنه عُمره ما حبك، سألته: «**ايه اللي بينك وبين مراتي؟**» رد بتكبر: «**مراتك دي تبقى مين؟**» افتكرته بيستهبل وقلتله «**مراتي تبقى زينب**»، راح وقف من مكانه وبِعد عن مكتبه وحط ايده على دقنه يفكر وقال: «**وزينب دي تطلع ايه؟**» قلت يمكن ناسي أو لسه بيستهبل: «**زينب إبراهيم المصري، المصورة بجريدة الكلمة**»، ووقتها ضحك ضحكة صفرا بكل غرور، وفهمت إنه ما يعرفش حاجة اسمها الحُب لعلاقاته النسائية الكتير، أو يمكن لتجربة صعبة مر بيها في الماضي ومكملتش، وبعدها سأل: «**تقصد البنت اللي ما بتعرفش تجيد التصرف، كأنها فتاة ريفية خام؟**» ووقتها بصيت له بنفس نظراته المُتكبرة وقلت: «**لو كنت بتسخر منها لكونها كدا على حد قولك، فكل اللي بسمعه دا ما هو إلا مدح في حق مراتي.. أشكرك**

عليه»، ومد لي إيده يسلم كإنه بيقوللي إن وقتي معاه انتهى، وقال ساخرًا: «**ما تقولش لزينب بأنها ولا حاجة بالنسبة لي.. ولا حاجة بالمرة**».

وضعت يدي على عيني وحنيت رأسي إلى الأسفل واسترسلت في البُكاء، فقال آدم:

ـ لسه بتبكي عشانه يا زينب؟

ـ لا.. ببكي عشان خاطر كرامتي اللي أنت خليته يدوس عليها كإنه بيدوس على سيجارة، قلتلك ان كل دا مجرد هواجس جواك وماصدقتنيش، نجم عُمره ما حبني ولا هيحبني.

مرت ثلاثة أيام من دون حديث يجمع بيننا، كل منا ينام في غُرفة بعيدًا عن الآخر، لا نجتمع إلا على مائدة الطعام، توقفت عن مُتابعتي برنامج نجم، أردت فقط أن أنساه، ومن أراد النسيان حقًّا عليه التخلي عن مُتابعة أخبار من كانوا سببًا في وجع قلبه يومًا، وقررت أن أمنح كل وقتي لأسرتي الصغيرة ولعملي حين عودتي إليه بعد انقضاء أشهر حملي، أما آدم فقد تغيَّر معي، توقَّف عن مُناداتي إلى فراشه، يقضي نهاره في العمل ويأتي ليلًا للنوم فقط، كأن بيتنا أصبح فُندقًا وأنا المسئولة الوحيدة عنه من حيث تنظيفه وتنسيقه.

ذات ليلة، أخبرني آدم في أثناء تناولنا العشاء معًا، أنه سيتغيَّب عن البيت أسبوعًا بأكمله؛ لحضوره مؤتمرًا صحفيًّا بإحدى الدول العربية وقبَّل حينها جبيني وقال راضيًا:

ـ خلي بالك من نفسك.. ومن ابننا!

هكذا كان دومًا.. لا بدَّ أن يُدخل صغيرنا في كل شيء، وكأنه يهتم بي ليس لأجلي بل لأجل هذا الرباط الذي يجمع بيننا.

مضى اليوم الأول والثاني والثالث على سفر آدم، وشعرت بالضيق، قررت أن أخرج، حيث شوارع القاهرة، أستنشق الهواء، وآخذ منه جرعة كبيرة، أملأ به صدري، وأنعش روحي، وكذلك أشتري هدية لآدم، أفاجئه بها فور عودته، افتقدته كثيرًا، فإن كان الحب لن يفلح في الجمع بيننا، فتكفي المودة والرحمة اللتان تجمع بيننا، وبين والديَّ وبين مُعظم الأزواج.

سرتُ بعربتي الصغيرة على صوت «**فيروز**»، أتأمل وجوه المارة كعادتي من نافذة العربة؛ فأنا المهمومة دائمًا وأبدًا بهموم الناس، ونظراتي لهم ليست لأشكالهم، بل أتعمق حيث دواخلهم، ألمح حكايا وأسرارًا في أعينهم؛ فمَن مِنَّا لا يحمل بداخله سرًّا كبيرًا لا أحد يعرفه غيره؟ ومَن مِنَّا لا يحمل في نفسه همومًا تتجدد باستمرار ما دامت الحياة؟

رأيت على جانب الطريق شيخًا عجوزًا يُعاني السير ويهاب العربات، كدت أترك سيارتي لمُعاونته، إلا أنني لمحت طفلًا لم يتعدَّ الأعوام العشرة، أمسكَ بيده ووصَّله إلى الجهة المُقابلة، وفي

أعين كلٍّ منهما نظرات تحمل ألف معنى ومعنى؛ فالشيخ يقول بنظراته للطفل: في يوم ما من الأيام الراحلة، كُنت طفلًا مثلك، لا أمتلك همًّا أو ألمًا، أحيا وسط والديَّ، أركض هنا وهناك. والطفل يقول بنظراته للشيخ العجوز: أعلم أنك كُنت مثلي في يوم ما، وأعلم أنه سيجيء الوقت الذي أصير به مثلك في يوم ما آخرٍ، لا أقوى على الحركة، وسأمتلك من الهموم والآلام ما يحني ظهري، وسيموت والداي بعد أداء رسالتهما في تربيتي، وسأصير وحيدًا بحاجة إلى من يمد لي يده ويعاونني على السير، وحتمًا سأجد طفلًا يفعل هذا معي كما فعلتُ معكَ؛ فالأيام دوَّارة، وكل ما يفعله المرء سيُفعل به!

ذهبت بي قدماي حيث الدكتور «**عبد الغني رمضان**» للاطمئنان على حالة جنيني ونسبة الماء الذي يُحيط به داخل رحمي، ووزنه، وكُل ما يتعلق به.. وبالطبع لن أغفل عن معرفة نوعه.

العيادة مُزدحمة بالنساءِ منتفخات البطون، على اختلاف أحجامها بتباين أشهر الحمل، لم أُطِق الانتظار، ذهبت نحو المُمرض ووشوشته في أذنيه بإخبار الطبيب عن اسمي «**زينب المصري**»، وبالفعل، قام هذا الرجل بما أمرته به، وسرعان ما أخبرني أن الدكتور في انتظاري.

دخلت نحو غُرفة الكشف، وكان عبد الغني مُنهمكًا في كتابة بعض البيانات عن المريضة السابقة في حاسوبه الخاص بالمرضى. وعندما وجدني أمامه، ترك ما يفعله وقال:

ـ يا أهلًا بمرات ابن خالي العزيز.

ـ أهلًا بيك يا دكتور.

ـ وصلك سلامي من آدم النهاردة؟

قلت مندهشة:

ـ النهاردة؟!

ـ كُنت في مكتبه الصبح بخصوص حملة دعاية لافتتاح مركزي الطبي الجديد في مدينة نصر، وقولتله يوصل سلامي ليك وللشقي دا. «**مُشيرًا إلى بطني**».

أكملت حديثي وكأنني لم أسمع شيئًا حتى أتحقق من الأمر بنفسي:

ـ طيب يلّا طمنني على حالة الشقي دا.

صعدت على سرير الكشف واستلقيت بظهري عليه، ورفعت ملابسي مُستعينةً بالملاءة البيضاء، وضعت المُمرضة دهانًا لزجًا على بطني وجلس الطبيب بجانبي، وأخذ يحرِّك يده على بطني بآلة معدنية موصَّلة بجهاز رُباعي الأبعاد، وذهبت بنظري حيث التلفاز المُعلَّق أمامي، الذي يكشف عمَّا بداخلي، وحينها تحرك جنيني، فضحك الطبيب وقال:

ـ الولد دا طالع شقي مش غلبان زي أبوه.

ـ بتقول إنه ولد يا دكتور.

ـ ايوه «**ولد**» يا زينب.

طار قلبي من فرط السعادة عندما علمت أنه ولد، وتضاعفت فرحتي عندما تخيَّلت آدم حين سماعه الخبر؛ لأنه عاش وحيدًا طوال حياته، وصغيرنا سيصير أخًا له، فما أجمل أن يكون الابن البكري أخًا لأبيه.

بعدما طمأنني الطبيب ومنحني فرحة، جففت بطني بمنشفة ورقية من هذه المادة اللزجة، ووقفت من نومتي المُتيقظة.. نسَّقت ملابسي ثانيةً وسلمت عليه ومشيت.

ساورني الشك.. وتساءلت: «**ليه كذب عليّا آدم وقاللي إنه مسافر؟**»

اتصلت بالجريدة؛ كي أعلم حقيقة الأمر من العامل بطريقة غير مُباشرة، وحينها سمعت صوت آدم يرد عليَّ، فاكتفيت بسماعه من دون أي رد مني، صعدت عربتي وسرت نحو الجريدة، رأيت عربته أسفل المبنى، اتصلت به على رقم هاتفه الخاص، فرد عليَّ بصوتٍ شبه نائم، سألته:

ـ فينك يا آدم؟

استمر في كذبته وقال على عجلٍ كأنه يُريد أن يُنهي المُكالمة معي:

- المؤتمر كان طويل يا زينب، ومحتاج أنام وأرتاح، هصحى وأكلمك.

أغلق آدم الهاتف في وجهي.. عاودت الاتصال به، وجدت حينها هاتفه مُغلقًا، ركضت نحو مبنى الجريدة، وجدت المصعد مُعطلًا، صعدت حتى الطابق التاسع على آخر نفس، وعندما وصلت، لمحت الأنوار مُشتعلة بالداخل، وتحوَّل الشك إلى يقين، آدم مؤكد بالداخل، يبيت في الجريدة بعد العمل طوال اليوم، فلا بد أنه غاضب مني، سأصالحه الآن وسأفرحه عندما يعلم أن الشقي الذي يسكنني «**ولد**».

طرقت الباب كثيرًا.. فتح «**آدم**»، يرتدي بذلته بطريقة غير مُنمقة كأنه لبسها على عجل، يبدو التوتر عليه، يتصبب عرقًا، أنفاسه غير مُنتظمة، وقف على الباب وحجبني من الدخول وقال خائفًا كأنه يفتعل كارثة:

- ايه اللي جابك هنا؟

ولم ينتظر حينها إجابتي، فأمسك بكتفي وقال:

- تعالي نكمل كلامنا في مكان تاني.

تساءلت في قرارة نفسي: ليه بيمنعني من الدخول؟ وليه متوتر كدا؟

وحينها سمعت صوتًا أنثويًا ينادي:

- آدم.. فينك يا حبيبي؟

ألقيت حقيبتي وهاتفي على الأرض وأبعدت آدم عن وجهي، وركضت كالمجنونة نحو الداخل، أبحث عن صاحبة هذا الصوت الناعم في جميع المكاتب، فوجدتها!

وجدت «**فاتن**»، تلك المرأة التي تمتلك من اسمها نصيبًا، المرأة الخارقة كما يتهامز عليها موظفو الجريدة، تضج بالأنوثة من كُل مناطق جسدها البارزة، إلى الحد الذي يسرق الأنظار نحوها ذهابًا وإيابًا، طولها أربعة أضعاف عرضها، عريضة الكتفين، بل عريضة في كُل شيء؛ فكل ما بها قد أخذ حقه في النمو والنضج والرعاية حتى استوى، فقلت كالثور الهائج بدموع حارقة وأنفاس مُضطربة:

- دا المؤتمر اللي سيبتني عشانه؟ بتخونني!!

قال كأنه يُبرر خيانته:

- أنتِ اللي بدأتِ بالخيانة يا زينب»، قلبك خاين!
- المشاعر مش بتخون، ولو كانت بتخون.. فهي ما بتخونش إلا أصحابها.
- مستنية مني ايه وانا راجل ومحتاج لواحده تبادلني المشاعر؟
- أي مشاعر دي..؟

ـ مش هتفهميني أبدًا، مادام قلبك بعيد، الراجل محتاج يحس برجولته مع واحده تحبه مش مجرد جسم بارد خالي من أي إحساس.

ـ بتبرر خيانتك؟ أنت عارف إن كُل حاجة فيّا ملكك.

ـ إلا قلبك؟

نظرت نحو فاتن التي تسمع حديثنا من دون أي مُحاولة للتدخل، خشية أن أفضح أمرها مع الزملاء، وقلت:

ـ وهي دي اللي سلمتك قلبها؟ طلقني يا آدم.

أمسك بيدي كأنه يعتذر ويطلب المغفرة، ابتعدت عنه وذهبت نحو الخارج كأنني أهرب منه، وجاء خلفي يحاول أن يلحق بي، فانزلقت قدمي على السلم ولم أشعر بنفسي إلا وأنا على فراش المُستشفى، ينسكب من نصفي الأسفل بحر من الدماء.. سألت أمي التي كانت تبكي بجانبي: ايه اللي حصل لي يا أمي؟

لم ترد عليَّ، فعلمت بسكوتها أنني فقدت هذا الشقي الذي كان حلمًا جميلًا لم يُكتب له أن يتحقق.



ما أضيق العالم داخل عينَي المهموم.. وأي مهموم؟ قطعت فترة إجازتي وعُدت إلى العمل بعدما أصبحت قادرة على الاعتماد على نفسي من دون زوج أو صديق أو حبيب، وبدأت فترة جديدة في حياتي العملية.. نويت في قرارة نفسي، أن أكون كما أريد!

تركت الجريدة وانتقلت إلى أخرى بعدما كدت أختنق، بل اختنقت بالفعل من مُطاردات آدم ومحاولاته الفاشلة لرجوعي إليه، فما زلتُ على ذمته على الورق فقط، وما زالت حُريتي منه قيد التنفيذ، والرباط الذي كان يجمع بيننا بات سرابًا في الخيال لم يُكتب له أن يتحقق على أرض الواقع.

لكنه ما زال يُطاردني في كل مكان أخطو إليه: في الجريدة وفي المطعم الذي أتناول به غدائي في أثناء فترة الراحة المُحددة لي في مُنتصف النهار، وفي بيت يُسر، وفي كل شارع!

وبعد ذاهبي لتناول الغداء، وجدته يجلس على طاولتي، ينتظرني، طلب التحدث معي وقال برجاء:

ـ ليه كُل القسوة دي يا زينب؟ أنا مستاهلش منك كدا.
ـ اديني حُريتي يا آدم وحافظ على اللي إتبقى من كرامتك.
ـ كأني بتكلم مع بني آدمه تانية.. غريبة عني، أنتِ لسه مراتي!
ـ كُنت يا آدم.. واللي كان بيجمع بيني وبينك خلاص راح.
ـ هنعوضه يا زينب.. بدل الطفل، اتنين وتلاتة!!
ـ أنت في نظري خاين.
ـ ونجم في نظرك حبيب!!

وقفت من مجلسي ووضعت نظارتي وأشيائي الصغيرة في حقيبتي استعدادًا للرحيل، فأمسك يدي وصاح كالمجنون:

ـ هقتله يا زينب، وأقتلك وبعدها هقتل نفسي.

شعرت بالخوف لأول مرة من آدم، فكأن تهديده صادق والشر الذي يسكن عينيه أصابني بالقشعريرة في جسدي، فلم أحتمل سماع أي مكروه يلحق بنجم، وقلت: اقتلني أنا بس.

قال مُتأثرًا بدموع طفل:

ـ وأنا مش هقدر أعيش من غيرك، سامحيني وأغفري لي ذنبي!

نظرت له وقد بدأت أفكر في أمر رجوعنا، ثُم تركت المطعم بعدما كان كُل زائريه يُشاركوننا حديثنا بآذانهم وأعينهم.

جلست مع نفسي في غرفتي أفكر في أمر عودتي إلى آدم.. كيف أقسو عليه إلى هذا الحد الذي أرى دموعه ولم أتأثر؟ كيف لم أغفر له خيانته وقلبي لا يحبه من الأساس؟ فماذا لو كُنت أحبه حقًّا؟ هل بهذا آخذ بالثأر من قسوة نجم وتجاهله من خلال قسوتي على آدم؟ لكن آدم يُحبني، أما نجم...

هل بالفعل أرفضه بسبب خيانته أم لأنني أخيرًا وجدت مخرجًا بمثابة بريق أمل لإنهاء زواجي به؟ لست أنا هذه، التي تقسو على قلب يُحب بصدقٍ، سأمنحه فرصة ثانية وسنغلق دفاترنا القديمة ونفتح صفحة جديدة في دفتر آخر، أرجو أن أكون قد أصبت القرار.



لقد أخطأت حقًّا عندما عدتُ للعيش مع آدم ثانية؛ فالغيرة والشك تجاهي قد طرقا رأسه، ومفهوم الحُب لديه قد تغيَّر، فأصبح الامتلاك هو الوجه الآخر للحب، عليه أن يأمرني وينهاني، ويمنعني من الخروج ويتحكم بكل ما بي كالدمية الخرساء، وكل همه الإنجاب، لكنني لم أجعله يفلح في ذلك أبدًا، وكنت أتناول في الخفاء حبوبًا لمنع الحمل، ليس لكي لا أصبح أمًّا، بل لأن حياتي مع آدم باتت على وشك الانهيار، وإن كُنت غير حذرة في المرة السابقة، فسأفعل كُل احتياطاتي تلك المرة، فما ذنب طفل يأتي إلى هذه الحياة ويعيش بين والدين مُنفصلين؟

مضيت في طريقٍ مكتظ بالأشجار من جانبيه، وكان القمر بازغًا تلك الليلة.. تقابلت معه ذات صدفة، تلاقت الأعين وتشابكت الأيدي، أخبرني أنه يفتقدني حد الوجع، وأخبرته أني أحيا من أجل تلك الصدفة!

وقال بشوق العاشقين:

ـ ليه ما بتحاوليش تقابليني أو تتصلي بيّا؟

ـ لإنك قلت في يوم من الأيام.. إنها آخر مرة نتقابل فيها.

قام من مكانه وعانقني بقوة وقال:

ـ مش هسيبك تاني تضيعي من إيدي يا زينب.

ـ ومراتك وبنتك يا نجم؟

ـ أنتِ مراتي وبنتي وكل أهلي وحبايبي.

ـ بحبك يا نجم.

وقبل أن ينطق بما انتظرت سماعه ليالي طويلة «**أحبك زينب**»، وجدت آدم يحاول إفاقتي من إغمائي.. وعندما فتحت عينيَّ وجدتني بين ذراعيه، فتذكرت ما حدث هذه الليلة، وأنه لمحني أتناول حبوب منع الحمل في الخفاء، وصفعني على وجهي حتى نزف أنفي، ووقعت على الأرض، فاقدة الوعي والنطق، ولقائي مع نجم لم يكن إلا حلمًا جميلًا.

لم تُحزنني الصفعة بقدر حُزني على عدم إكمال لقائي مع نجم وسماعي منه «**أحبك زينب**»، حتى لو كان مُجرد حلم، ومضت أيام كنت أحلِّق بها في السماء القريبة، أشرد دومًا، أراجع تفاصيل هذا اللقاء الخرافي، وأعيد كلامنا داخلي بالساعات، لقد جُننت، نعم، جُننت حقًّا، فأخذ الحلم مني أكثر مما يستحق، وكان اهتمامي به أكثر من اهتمامي بواقعي، يا ليتني أسمع بالفعل هاتين الكلمتين: «**أحبك زينب**» وأدفع في المُقابل عُمري.

دعاني «**آدم**» على العشاء.. تبادلنا أطراف الحديث كصديقين وقال:

ـ الليلة دي كل طلباتك أوامر يا زينب، لو طلبتي عيني هتاخديهم!!

ـ طلقني لو سمحت.

لم يندهش آدم لطلبي وكأنه يفهمني ويحفظني ويعلم ما سأقوله قبل أن أتفوه به.. وقال مُطيعًا:

ـ هنفذ لك طلبك.. لكن مش قبل ما تنفذي لي طلبي الأول.

ـ ويا ترى ايه هو طلبك؟

ـ مش عاوز أشوفك تاني ولا أسمع ولا أعرف عنك أي حاجة.

ـ ليه.. كرهتني مرة واحدة خلاص؟

ـ لا.. لكن مش هستحمل أعرف إنك سعيدة من غيري أو أعرف إنك ممكن ترتبطي بغيري.. مش هستحمل اتخيلك وانت في حضن حد تاني..

ـ ما تقلقش مش بفكر في الارتباط تاني ولا هفكر.

ـ وليّا عندك طلب تاني..

ـ خير؟

ـ ما يجمعكيش مكان واحد مع نجم الدين.

ـ اشمعنى نجم بالتحديد؟

ـ عشان بكرهه، وبكره حُبك له، وفشلت إني أسكن قلبك مكانه.

ـ حاضر يا آدم.. اتفقنا.

سأنفذ طوعًا كل ما طلب آدم؛ ليس لأنني لا أريد مقابلة نجم، بل لأنه لا مجال لحدوث ذلك.

رجعنا البيت وأطفأ آدم جميع الأنوار وأشعل نورًا خافتًا وموسيقى هادئة، وأوقفني بين يديه وقال:

ـ عاوز آخر ليلة بيننا تكون زي أول ليلة.

قبَّل جبيني ورقصنا معًا رقصات هادئة، رأيت في عينيه دموع كبرياء رجل يُجاهد نزولها؛ فأصعب أنواع الدموع تلك التي تسكن عينَي رجل لا يبكي، تعصف بكيانه وتُزلزل قلبه ولا تسقط.

كنت أتأمل المكان بكل ما به، أبكي لفراق الأشياء أكثر من فراقي لآدم، أودع بعيني النافذة، روح البيت وروحي، أودع مقعدي الهزاز، الذي كنت أجلس عليه عندما أحتسي قهوتي كُل صباح ومساء وعند مُتابعتي برنامج نجم عبر التلفاز، أودع فراشي الذي جمع بين جسدين لا يصلحان لبعضهما؛ فأحدهما بلا مشاعر والآخر يصرخ من فيض المشاعر، وبين هذا وذاك نصف حياة.

وبعد أن رقصنا معًا، جذبني نحو الفراش الذي شهد على أبشع الجرائم في حق روحي المُستهلكة، وشهدت وسادته على

دموعي عقب كُل لقاء، وبدأ في فتح أزرار ملابسي من دون حديث أو طلب، وكأنه يأمرني بلطفٍ، فلم أبخل عليه بما يُريد، هذا هو آدم، لا يبرح فرصة أبدًا إلا وانتهزها، وكُنت فريسته وفُرصته.

لا بأس.. سأمنحه جسدي لآخر مرة؛ فغدًا الخلاص، وكانت هذه أطول مرة جمعت بيننا، وكأنه لا يُريد أن يتركني ويبتعد، ومع بداية صباح جديد، ونكهة شروق مُختلفة، أخذنا معًا حمَّامًا دافئًا، وساعدني على تجهيز حقيبتي، وأوصلني بعربته لبيت يُسر وعند عتباته وقبل أن أطرقه، سلم عليَّ بيديه وعينيه وقال:

ـ أنتِ طالق يا زينب.

فتحت يُسر الباب وما زال النوم يُمسك برموش عينيها، ووجدت أبي يجلس على مقعده المُتحرك في الشُرفة ـ بعدما شُلّت قدماه عقب موت أخي ـ لحضور طقوس الشروق من بدايته كعادته، سلمت عليه وزرعت قبلة دافئة على جبينه وذهبت نحو غرفتي، أبدلت ثيابي وقلت: «**صباح الخير**» لصورة نجم الدين المُعلقة فوق فراشي، وبعدها دخلت المطبخ وأعددت الفطور بنفسي وجلس ثلاثتنا لنتناوله معًا على طاولة واحدة، وحينها نظرت يُسر إلى صورة أخي عبد الرحمن المُعلقة أمامنا على الحائط، التي يشقها شريط أسود يخبرنا دومًا بأن صاحب الصورة قد مات، فتوقف الطعام في حلوقنا، وانتُزعت البسمة من شفاهنا، ومضت بهجة الشروق بعيدًا؛ فالسعادة لم تكن يومًا من نصيب بيت يفتقد أحد أصحابه.

شاركت في تظاهرات جديدة، بل تزعمت التظاهرات الصحفية التي تندد بضرورة وجود حُرية صحفية في البلاد، لم أعد أحتمل صمتي، بل صمتي لم يحتمل كثرة أحاديثي الداخلية، تكلمت وتظاهرت وصرخت وكتبت مقالات عدة، لم تنَل استحسان رئيس التحرير ورضاه، وكان المُقابل إقالتي نهائيًّا من الجريدة، لم أخمد صوت الحق، شاركت مرارًا وتكرارًا، وفي كُل مظاهرة أزداد قوةً وإيمانًا ويقينًا.. لقد اقتلعت من داخلي خجل فتاة الريف الخام التي تنعم بسجية طيبة لا تتماشى مع هذه الأيام، ومزَّقت الحواجز الروتينية وفككت أسر الضوابط والقوانين الحياتية، انطلقت كما لو أنني صاروخ عابر للعقول، وتمنيت حينها أن يراني نجم ويرى كم أصبحت أكثر تحررًا كما دعاني قبل ذلك الحين.

وفي إحدى التظاهرات، كسر الضابط كاميرتي وتم القبض عليَّ، وقضيت ثلاثة أشهر بأكملها خلف الأسوار، تساوت حينها رؤوس الأبرياء مع المذنبين، ثلاثة أشهر كأنها أعوام، الوقت داخل الزنزانة يختلف عن الخارج، عقارب الساعة التي تأكل الوقت، تتحوَّل داخل السجن إلى سلاحف تعشق التأنِّي في السير، فكيف حال من قضى ربع عمره أو نصفه داخل هذا المكان؟

وبعدما تم الإفراج عني، فوجئت بخبرٍ قد قتلني وهزَّني، لقد تم إيقافي عن مُمارسة مهنتي الصحفية في أي جريدة أخرى، وأُهدر حبر قلمي ومداده في أي مكان كان.. أي عدل هذا الذي

يحبس حريتي داخل زنزانة الجُبن والصمت والخنوع؟ أي عدل هذا الذي يعدم قلمي في ميدان الظُّلم العام؟ أي عدل هذا الذي يمنع كلمتي ويحجب رؤية عين كاميرتي لواقع غير مُبشِّر لما هو قادم؟ هل أحيا كالأبكم الذي يصرخ في عالم لا يسمع، وإن سمع تجاهل، وإن لم يتجاهل نزع القول الحق من على الشفاه، ليصير الخرس تاجًا فوق رؤوس البشر، ويصير الخوف سمة الأحياء الشُرفاء، والقوي فقط من يسير «**مع**» التيار ويصفق على كُل قرار، كما لو كان قرارًا إلهيًّا مُقدسًا مُنزلًا من سابع سماء، فيمجده ويُهلل لعظمته في الساحات، وفي كُل الجرائد والمواقع، وإن نفد حبر قلمه في التهليل المُبين، سيجد مئات من الأقلام نصب عينيه على مكتبه، تتعطش نحو المزيد من النفاق؟! يا له من عالمٍ حقير، لم يساوِ بعوضةً واحدة أو حتى جناحًا منها.

أصبح اسمي تتداوله كُل الألسنة وفي كُل الجرائد، منهم من رآني بطلة، أندد بالحياة والحرية، أود الظهور وسط العالم، لكنني لست بطلة، فما قيمة البطولة خلف أسوار حديدية؟! فلقد تعلمت الدرس جيدًا وأدركت قيمة الحُرية بعد سجني؛ لذلك أقولها بأعلى صوتي: «**أنا لست بطلة**».

ومنهم من يراني مُتهمة، ليس لي الحق في التدخل في شئون البلاد، ونظرتي لم تنضج بعدُ، أو أنني أجهل تصرف العُقلاء، والخير قادم لا محالة، يا ليتهم على حقٍّ وأكون بينهم المخطئة!

وأصبحت حكاية في كُل بيت مصري، واسمي يتوسط عناوين الأخبار الرئيسة في كُل الجرائد:

- «**سقوط صحفية شابة من برج الحياة بعد صراع طويل مع الصمت، منع الصحفية زينب المصري من العمل في أي جريدة بسبب تطاولها وجهلها**».

تباينت الأخبار عني والأقاويل المُعارضة والمؤيدة، لم أبالِ بكل هذا، بل كانت صدمتي الحقيقية عندما سمعت «**نجم**»، في برنامجه، يتهمني بإثارة الفتن والتظاهر غير السلمي، ويسبني وينعتني بألفاظ قد خدشت سمعي وقلبي.

كذبت يا نجم في ظنونك هذه المرة.. ما دليلك على إثارتي الفتن، وما دليلك على تظاهري بطريقة غير سلمية؟ هل الكاميرا التي أحملها بمثابة بندقية يُطلَق من عدستها الرصاص، أم القلم الذي أضعه في جيبي يحمل شظايا النار المُميتة في عظمته المُستقيمة؟ ما دليلك؟ أجبني بحق عشقي لك ولوطني.

قضيت كُل وقتي ما بين الدموع والنوم، فلنا في الدموع راحة لا يعرفها إلا كُل موجوع، ولنا في النوم راحة من كُل يقظة.

طلب أبي مني أن أساعده لزيارة قبر «**عبد الرحمن**»، وبالفعل ذهبنا معًا. انهمك أبي بسقي الصبَّار الذي ينبت هناك، وكأن الصبار تمكَّن من جعل أبي يصبر ويحتسب. وقفت صامتة وقوية في شكلي الخارجي أتطلع نحو باب القبر وبداخلي انهيار كبير، ألمح عبد الرحمن بالداخل، يجلس خلف الباب الحديدي،

يمد لي يده كما اعتدت منه ويبتسم، فمددت يدي نحو الباب..
قال أبي:

ـ شايفك بتبتسمي يا زينب.

قلت كالمُغيبة:

ـ عبد الرحمن بيناديني.

ـ وهتعملي ايه يا بنتي؟

ـ هروح له يا أبي.. وأسلم عليه!!

قال متوجعًا:

ـ بلغيه سلامي وشوقي لما تقابليه لحد ما أقابلكم!!

وضمني أبي نحوه وقال: يلّا ارجعي ليُسر.. تلاقيها مستنياكِ.

ـ وأنت؟

ـ هفضل هنا أروي زرع المقابر!



في السابع عشر من فبراير من كُل عام، أذهب بذاكرتي حيث الإسكندرية، وأول لقاء جمعني بنجم الدين، فقد أخطأ من قال ان الحب يموت بمرور الوقت.. الحب كالنبت الطيب، يزداد كُلما سقيته بدموع عينيك، ويموت فقط إن أهملته.

مضى عام وراء عام من ذكرى مولد الحب في قلبي، ومضت شُعلة خريف العُمر نحو أبي وأمي، وأخفقت في إكمال شُعلة زواجي، وانتُهِكت شُعلة الشرف، وسُجنت شُعلة الحرية داخل زنزانة الحياة، وصارت شُعلة الحلم كابوسًا، وماتت شعلة الرحمة في قلوب الظالمين الحمقى، وكذبت شُعلة الصدق على الألسنة، وصارت شُعلة الخيانة داخل كُل البشر، سواء أكانت خيانة مشاعر أم جسد، ورحلت شُعلة الطفولة وراحة البال وسادت الهموم على صدورنا كحِمل جِبال، وعق الابن أمه، وعندما أطلت في حمل شُعلة الصمت، انفجرت براكينها في وجهي.

وها أنا بغرفتي، أكتب آخر فصل في مُذكراتي بعدما ذكرت أهم أحداث حياتي بأجندتي الحمراء، ولن أنسى حديثي مع أمي منذ دقائق قبل الآن حينها قالت:

ـ مُمكن اقرا اللي دايما شيفاكِ بتكتبيه في الاجندة دي وواخدك مني؟

ـ هتقريه يا أمي.. لكن مش النهارده!

ـ ذكرتِ فيه قصة قلبك؟

ـ ذكرتها..

ثُم اقتربت منها وطلبت: ضميني يا أمي.

ـ لسه نجم ساكن قلبك لحد الحظة دي؟

قلت كاذبة؛ فأنا المرأة التي تكذب دومًا حينما تتحدث عن حالها وحال قلبها: حُب نجم مبقاش يسكن قلبي، قلبي من الليلة دي حُر..

اللحظات الأخيرة؛ تتصدع جدران العالم، تحبو الآمال بعيدًا، يكسو اليأسُ القممَ، ترتع الأماني في نواصي المُستحيل، يبكي الوطن وتدوي بصرخاتها الحبيسة: «**آهٍ عليك يا وطن وألف آه**».

تدنو الفكرة من رأسها، والصخب الذي يملأ روحها يندفع بشدة في سائر جسدها، فتنساب كُل أجزائها، الطفل المُتمرد يكبر داخل أوردتها، ينهار العالم لأجلها، وتصير الحياة على مشارف

الموت، وترتعد حواسها.. ثُم تركض بعيدًا، لكن سُرعان ما تعود إلى شيطانها المُترقب، وقدرها المُنتظر، فلن يتبقى عدا التنفيذ، فلتبدأ طقوس الموت!

الحبل مُعلق حول إحدى الحدائد المُممددة على حواف النافذة، والمقعد الخشبي أعرج الأرجل يستند أسفله أمام فراشها البارد، ينتظر لمساتها الأخيرة، ترى أخاها يمد لها يده ويُناديها في لهفة، وأباها يروي زرع المقابر، بينما تقف أمها كالسد، تصرخ في وجهها البائس:

ـ ما تسيبينيش يا «**زينب**»، خليكِ هنا.

تهزها صرخاتها.. تُزلزل قلبها.. وتُعثِّر خُطواتها المُتأنية نحو حياة تراها الأفضل، وفجأة اختفى طيف أُمها ولاح نور الفجر عبر نافذتها الوحيدة، شربت قهوتها مع سيجارتين وجهزت الوسائل اللازمة «**كُرسي وحبل غليظ**» ثُم توقفت دقيقة حدادًا على روحها قبل صعودها، ونظرت نحو الحائط الذي يحمل صورة نجم، ثم نحو التقويم المُعلق الذي يخبرها عن حقيقة فبراير الذي يذوب به الجليد من فوق قمم القلوب، والشمس تبدأ توهجًا من جديد، وتعود المشاعر لدفئها بعد ما ينقضي موسم البرد، فصعدت فوق المقعد الأعرجِ وهي تتحسس الحائط الحزين، ولففت الحبل حول رقبتها وركّزت ثِقل جسدها على أحد أطراف المقعد، وعلى الفور وقع واستجاب لرغبتها الأخيرة في الخلاص، وها هي كتبت كلمة البداية بآخر أنفاسها، وها هو ملك الموت يُسدل الستار.

وهُنا.. يتوقف العازف

حيَّ على الصلاة.. حيَّ على الصلاة.. حيَّ على الفلاح.. حيَّ على الفلاح.. الصلاةُ خيرٌ من النوم.. الصلاةُ خيرٌ من النوم.. الله أكبر الله أكبر.. لا إله إلا الله.

تطرق «**يُسر**» باب غُرفة ابنتها كي تدعوها لصلاة الفجر.

- «**زينب**».. يا «**زينب**».. افتحي الباب يا بنتي، أنتِ مش سامعة صوت المؤذن وهو بيقول الصلاة خير من النوم؟ حيَّ على الصلاة يا «**زينب**».

لم تُجِب» زينب» نداء أمِّها، فاستعانت الأم بمفتاحٍ آخرَ كان بحوزتها وفتحت باب الغُرفة، وكانت مُصيبتها الكُبرى عندما وجدت ابنتها مُعلقة من رقبتها بعينين مفتوحتين على أقصاهما، ولسانها يتطلع خارج فمها، وبعض آثار الدماء إثر شدة الاختناق، ونعليها قد سقطت إحداهما أرضًا بينما مكثت الأخرى مُتشبثة بموضعها حيث قدمها اليُمنى، وكل جسدها صار أزرقَ.

تصلَّبت الأم أمام المشهد القائم من دون حراك، وكأنها قد تغيَّبت عن واقعها، صعدت على المقعد المُلقى جانبها فوقع بها، أحضرت آخرَ وصعدت عليه وحلَّت كل العقد التي كانت بحدائد النافذة مُستعينة بسكين.. وحينها، سقط جثمان ابنتها على الأرضِ، وبعد دقائق من الصمودِ والثباتِ واستيعاب الموقف، انهارتَ الأم بصرخاتٍ أيقظت بها النيام، وفي الحقيقة لم تُرِد إيقاظ أحدٍ غير ابنتها، لكن الميت لا عودة لروحه ولا يقظة

لجسده.. فلقد مات صوت الحق في الحناجر، ماتت البسمة على الشفاة، ماتت الحياة، ماتت زينب.

دُفنت زينب بجوار أخيها الذي ما زال جُثمانه ينبض بلا قلب، وما زال دمه دافئًا لم يجف، وكأنه حيٌّ لم يذُق كأس الموت.

اتسع القبر كُلما امتلأ، وكأنه يقول: هل من مزيد؟ وضاقت الحياة كُلما فرغت وكأنها تقول: أنا لمن يُحبني أول البائعين.. ليتكم تُدركون، ليتكم تدركون أنها مسألة وقت.. مُجرد وقت وكل شيء في طريقه نحو الانتهاء.

شنقت «**زينب**» أحلامَها وطفولتَها وشبابَها وضحكاتِها وبراءتَها وطيبتَها.. ووارتهم داخل مكان موحش لم يتجاوز المتر طولًا وعرضًا، نوره من ظلام وظلامه كقطعة من الليل، سُكّانه من تراب، ووحشته بلا أنيس، أبوابه تحجب بين عالَمين، يركض نحوه الورى جميعهم بلا سباق، يشتهونه دون رغبة، يتذكرونه بكل غفلة، ويتغافلون عنه بلا نسيان، يرونه طوال لحظاتهم من خلال نظارة سوداء، يفتعلون حماقات وكأنهم يحيون أمدًا، وما يدرون أن العُمر لحظة والحياة الأبقى تكمن بعد الموت.

انتحرت «**زينب**» بعدما انطفأت كُل شعلاتها التي كانت مُتقدةً ذات يوم، وبعدما أخفقت كُل محاولاتها في الحفاظ على اتزانها النفسي والمعنوي، فانطفأت لديها شعلة الحب والعمل والوطن.. فبماذا إذًا تُجدي الحياة؟

في تمام الساعة السادسة صباحًا، أغلق نجم الدين دفتي الأجندة التي سهر لأجلها، ومع صوت موجات البحر وقدوم نور الشمس عاد إلى واقعه، ولم يتبق معه عدا سيجارتين داخل عُلبة السجائر الخاصة، وها قد بدأ ينفث دُخان سيجارته قبل الأخيرة، وحينها همس صديقه في أذنه:

- النهار طلع عليك وأنت لسه صاحي. ايه سر الأجندة دي؟ ومين هي زينب اللي طلبت تنفرد بسطورها طول الليل؟

انتفض نجم من سؤال صديقه فجأة من دون لفت انتباهه، فلقد قضى ليلة بأكملها مع زينب من خلال مُذكراتها حتى الصباح، وعاش معها سطرًا بسطر حتى لعن قلبه القاسي الذي كان جلادًا لا يعرف الرحمة لقلبٍ كُلٍ ذنبه أنه أحبه، صفعها في الوقت الذي تمنَّته فيه، ركلها كماً لو كانت كرة تنس ضئيلة بمضربٍ صُلب. فأجاب صديقه بتودد وكأنه أراد أن يُشاركه أحد في حملٍ ما قد امتلأ به صدره، ربما يعود تنفسه بشكل طبيعي ويُهوِّن عليه آلامه الوليدة:

- هحكيلك يا جبريل عن أسطورة كانت بتمشي على الأرض وبقت في السما، عن ملاك الرحمة الطيب، عن صاحبة القلب الأخضر، هحكيلك عن غبائي اللي خلاني أضيع من إيدي حُب العمر.. لكن الأول سيبني أعمل حاجة.

ذهب «**نجم الدين**» الشاليه ليُصلي ويسجد لأول مرة بحياته عن قناعة، ونسي الأجندة الحمراء على الشاطئ، ثُم غلب عليه النوم وبعد دقائق تذكَّر الأجندة، ترك فراشه وركض نحو البحر الكبير، وجد «**زينب**» تقف على الشاطئ والأجندة في يدها، كانت ترتدي فُستانًا أخضرَ، وهذا الذي لمحه في خزانة ملابسها قبل أيام، وشعرها يتمايل على كتفيها كما الأمواج.. قال نجم:

- ليه شنقتي نفسك يا زينب؟
- عشان أشنق حُبك جوايا.
- والبلد يا زينب؟
- هتبقى أحسن بلد في الدنيا.
- وأنا؟
- مستناك بعد ما تخلص رسالتك.
- ايه هي رسالتي؟
- الحق والعدل، صوتك أمانة، فكر قبل ما تتكلم، أوزن الأمور بعقلك، كمل رسالتي يا نجم!!
- وروحك؟
- مستحيل ترجع لكن هتلاقيها جواك.
- وجسمك.
- رجع لأصله.
- ايه أصله؟

ـ التُراب.

ـ استني.. رايحة فين؟

ـ البحر.

ـ ما تبعديش عني.. أنا يا زينب ب حب

وقبل أن يكمل نجم كلمته، اختفت زينب داخل البحر، نظر حوله كي يبحث عن الأجندة الحمراء، فوجدها تطفو على السطح من بعيد، خلع ملابسه على عجلٍ، وعانق بذراعيه الأمواج وهو الذي لا يعرف العوم، لمح جبريل صديقه في مُنتصف البحر، لم يظهر منه غير رأسه وينادي بأعلى صوت لديه:

ـ زينب.. زينب!!

جري جبريل نحو صديقه حتى لحق به قبل أن تبتلعه الأمواج، وحمله على كتفه حتى الشاطئ، ألقى به على الرمال، وأخذ يُحرك وجهه يَمنة ويَسرة. لقد فقد نجم وعيه. قام جبريل بالضغط على صدر صديقه، حتى أخرج من فمه الكثير من المياه التي ابتلعها في أثناء غرقه.

فتح نجم عينيه بعد إفاقته، وسأل صديقه:

ـ فين زينب؟

قال جبريل لتصويب سؤال صديقه:

ـ تُقصد أجندة زينب؟ غرقت الأجندة يا صاحبي وكنت هتغرّق نفسك عشان تجيبها، الحمد لله نجدتك بأعجوبة يا مجنون.

ـ ليه انقذتني يا جبريل؟

ـ عشان انت صاحبي، ولو مش دا كفاية، يبقى اعتبرها رد جميل وانك انقذتني الأول.

ـ ازاي؟

ـ لما اتجوزت ناريمان وانا اللي كنت عايش فاكر إني بحبها وبحسدك عليها.

ـ تقصد إنك بتحب ناريمان مراتي؟

ـ كُنت يا صاحبي، كانت طلتها غير عادية، شوفتها من خلال نضارة مُزيفة، جميلة من برّه لكن من جوّاها مُزيفة، شكل من غير روح، افتكرت انها بتبادلني الحُب قبل ما تشتغل أنت في القناة لما كانت بتيجي تزور أبوها، لكن بعد وقت اكتشفت انها بتهزر وتضحك مع أي حد تشوفه صاحب مكانة ونفوذ، قتلتني الغيرة عليها لما لقيتها بتكلمك عشان تاخد دورك معاها زي اللي سبقوك، وبعد ما بقيت مذيع مشهور، زادت مكانتك عندها وخلتك تتجوزها وباعتني بعد ما كانت معشماني بالجواز منها، لكن هي دي ناريمان، بتوزن أمورها بمعايير مادية بحته، وآخر مرة كنت عندك في البيت

شوفتها في أسوأ حالاتها، مغرورة وعصبية ومتسلطة .. عرفت ازاي انقذتني؟

ـ عرفت يا صديقي.. أنقذتك أنت وغرّقت نفسي بجوازي منها.

ساعد جبريل صديقه على الرجوع إلى الشاليه.. وطلب نجم منه أن يُحضر صندوق سجائره الفضي من الخارج، وقد علم أن زينب هي التي أهدته إليه في يوم ميلاده، وكان قد أخفق في معرفة صاحبته حينذاك، وتذكّر كلماتها تلك التي حفرتها عليه من الداخل: «**حينما يأتيني الموت، سأموت على حُبِّك**».

ذهب جبريل كي يُحضرَ ما طلبه صديقه وعاد يجري وقال بسعادة:

ـ لقيت الجواب دا على الشط، واضح انه وقع من الاجندة قبل ما تغرق.

فرح نجم كثيرًا، فما زال هُناك شيء من رائحة زينب.. أرخى جسده على المقعد، وأخذ ينفث دُخان آخر سيجارة لديه على مهلٍ، ويقص على مسامع جبريل مَن تكون زينب وقصتَي حبها له وللوطن!

ومع غروب الشمس، رحل الصديقان، حيث القاهرة الكبرى، تاركَين خلفهما ذكرى نهار لن يُنسى، وذهب نجم إلى بيت حميه، رئيس عمله؛ كي يأخذ ناريمان زوجته ويعودا معًا إلى

بيتهما، وبعد طول انتظار لها في غُرفة الاستقبال، جاءت تسير على استعلاء، وقابلته بطرفِ أنفها وصدمته حين قالت:

ـ مش راجعه معاك.. روح مكان ما جيت، روح للي كنت بايت عندها.

رد نجم آسفًا صادقًا:

ـ ياريتني أقدر.

تدخَّل نجيب صُبحي في الأمر كي يُنهي الجدال قبل أن يحتد ويُعكر صفوه، خاصة أنه يُجهز نفسه لقضاء أسبوع عطلة بباريس مع إحداهن ممن يبِعن أنفسهن من أجل خاتم أو أسورة من الذهب الخالص.. وقف في المنُتصف وقال بهدوءٍ:

ـ ما تزعلش من مراتك يا ابني، دا عشان بتحبك وغيرانه عليك، سيبها يومين وانا هبقى أرجعها لك بنفسي لبيتكم.

قضى نجم طوال الوقت بمفرده في بيته، أو بالأحرى بيت زوجته، يُعيد كلمات زينب في ذهنه، ويعيد معها حساباته، وبدأ يرى العالم بعين أخرى عبر نظارة أخرى، وتيقَّن أنه كان يبلغ من العمى أقصاه، حتى حفظ عن ظهر قلب ذاك الخطاب الذي لم يُكتب له الغرق في عرض البحار مع أقرانه من المُذكرات، وبات يردده دومًا مع نفسه، وقرر أن يُخرجه إلى النور، ويمليه على مسامع كُل البشر.

عادت ناريمان إلى بيتها بعد يوم واحد بعدما أملى عليها أبوها نصائحه كأي أبٍ لم يُرِد لابنته إلَّا خيرًا ولم يُرِد لنفسه إلا راحة.

عاد نجم الدين إلى مُباشرة برنامجه الحقيقة في عيون الشعب وأعد موضوع الحلقة بنفسه مع صديقه جبريل، كي تخرج للمُشاهدين بأفضل صورة، وبدأ في تقديم البرنامج بقوله:

- في الحقيقة أعزائي المشاهدين.. إن هذا البرنامج لم يكن قبل اليوم اسمًا على مُسمًّى.. نعم، كما أقول لكم، فلم نكن إلا مُجرد أداة يتحكم بها كبار المسئولين، حتى أنا كُنت لعبة حقيرة في يدَي رئيس القناة، كُلما أطعته أغدق ماله عليَّ، وقررت أن تكون حلقة اليوم هي الأصدق على الإطلاق، كي يستحق البرنامج مُتابعتكم عن ثقة وكي يستحق اسمه، سنبدأ الحلقة بتقرير من خارج الاستوديو من الشارع المصري وشكاوى بعض المواطنين.

نظر «**نجم**» إلى شاشة العرض المُجاورة له وأمسك بالسماعة الصغيرة التي تسكن أذنيه كي يستوضح السمع، وطلب من زميلته «**نيفين**» أن تبدأ:

- تفضلي «**نيفين**».

ـ أهلًا بك زميلي «**نجم الدين كامل**»، نحن الآن نُراسلكم عبر أحد الشوارع، كي ننقل صوت الشعب، أو ربما أحلامه المؤجلة لحين إشعار آخر.

أوقفت «**نيفين**» أحد المارين بالشارع وسألته:

ـ بماذا ترى بلدك الآن؟

ـ شايفها في حالة ما تسرش، كل حاجة في طريقها للانهيار، الأسعار في زيادة والمرتبات زي ما هي دا غير الخصومات.

تدخلت إحدى المارة وقالت صارخة:

ـ تمن الخضار ولع، بقيت بشتري ربع كيلو من الطماطم أحطه على وش الأكل بدل الكيلو، وجوزي راجل قعيد مالهوش معاش.

التف جمعٌ غفير من المارة حول مُراسِلة القناة، كل منهم يشكو حاله وهو يعلم أن الحل أصبح عسيرًا، لكنهم أرادوا فقط التخفيف عمَّا بداخلهم وإزاحة همومهم، ربما يجدون في هموم غيرهم ما يُهوِّن عليهم ويجعلهم يحتسبون.

تداخلت الأصوات وأخذت «**نيفين**» تُمرر الميكروفون الصغير من واحد للآخر:

ـ الغلاء أصبح في كل شيء أستاذة «**نيفين**»، مش في الأكل وبس من خُضار وفاكهة، دا في الملبس

والأدوات المدرسية والكُتب والأثاث والأدوية والأجهزة الكهربائية والمواصلات، وفي كُل الفواتير، من كهرباء ومياه وغاز طبيعي.

- نحن يا هانم نعيش وسط كوم من الزبالة، نشيلها على كتافنا عشان نبعدها، ابني مرض بسبب قلة النظافة، هو احنا مش بني آدمين ولا ايه؟

- عندي أربعة ولاد، كلهم متخرجين من الجامعة، مالهمش دخل ثابت، يشتغلوا يوم وعشرة من غير شغل، قوليلي يا ست هانم هيتجوزوا ازاي؟ وهيفتحوا بيت ازاي؟ وكلنا عايشين في شقة صغيرة، يسرقوا.. ولا يضيعوا عمرهم على القهاوي، وايجار بيتنا ٨٠٠ جنية وصاحب البيت قوي ما بيرحمش، ولو اتأخرنا في الدفع هيطردنا، وظفوا ولادي.. وظفوا الشباب!!

- وانا باخد معاش التضامن الاجتماعي **٣٢٠** جنية، اعمل بيهم ايه واعيش بيهم ازاااي؟

- وانا واحد عندي ٦٣ سنة، بشتغل صبح وليل واللي باخده مش مكفيني علاج ولا فاتورة كهربا والمفروض اني عندي بنات لازم اجهزهم.

ثُم أوقفت «**نيفين**» أحد سائقي عربات الأجرة وسألته عن شكواه:

- لتر الجاز زاد أضعاف أضعافه، ليه بيتحاملوا علينا، على الناس الغلابة، لو عاوزين يرفعوا الأسعار يرفعوها على الناس المرتاحين أصحاب العربات الفخمة، أما احنا كسوائقين، لما يرفعوا أسعار البنزين والسولار هنرفعها احنا على الزباين، وتوسع دايرة المُعاناة.

تدخَّل الزبون الذي كان يجلس بجانب السائق ليقصَّ شكواه:

- أصحاب الصناعات الصغيرة إتدهورت حالتهم؛ أنا بشتغل في محل أحذية، ناقص أمد يدي للناس، مفيش حاجة رخيصة، مفيش وظايف، اضربونا بالنار أحسن.

توجهت نيفين إلى أحد الشباب ليكون دوره في عرض همِّه، وبسؤال بسيط عن حلمه، قال:

- بحلم بوظيفة، بحلم بشقة، بحلم إني أتجوز..

أخرجت نيفين تنهيدةَ وجعٍ من عُمقها، حتى قطع نجم الدين تنهيدتها وقال:

- أشكرك نيفين على تقريرك المرئي والمسموع من قلب الشارع، ونكتفي بهذا القدر من الألم والمُعاناة، لننتقل إلى الفقرة التالية بعد هذا الفاصل.

لم تَطُل فقرة إعلانات الفاصل، بناءً على أمر مُخرجه جبريل للعاملين معه، وعاد البث سريعًا للبرنامج، واستقبل المُذيع أول

مُداخلة هاتفية من أحد المواطنين، بسؤال هذا المُتصل عن اسمه قبل حديثه، ردَّ عليه ردًّا أدهشه:

ـ آسف مش هقدر أقول اسمي، عندي أطفال وعاوز أربيهم، أنا بطلب بس من الجهات المسئولة تشوف شكل الطرق عامله ازاي، كل يوم نسمع عن حادثة قطر اتقلب، حادثة اتوبيس اتقلب، وأعمار الضحايا مختلفة من رجال ونساء وأطفال بلا حول ولا قوة.. ربنا يرحمهم ويرحمنا!!

أخذ نجم الدين اتصال آخر:

ـ ألو .. اتفضلي يا فندم، ايه شكوتك؟

ـ جوزي كان بيشتغل مُدرس ومالهوش في أي حاجة تاني طول حياته، من بيته لمدرسته ومن مدرسته لبيته، اتقبض عليه من قلب المدرسة من غير أي تهمة لمجرد أنه كان متدين جدا ومُلتحي، وبقاله سنين على دا الحال، وانا تعبت لوحدي وبجري على تربية الولاد، انا الراجل والست في البيت، تعبت يا أستاذ نجم، خرجوه أبوس إيديكم.

تنهد نجم متوجعًا، وبدأ الحديث مع اتصال آخر:

ـ أنا راجل غني ومرتاح والحياة بالنسبة لي عشرة على عشرة ومعنديش أي مُشكلة وعلى قد ما بقدر بساعد اللي حواليا، وبكلمك دلوقتي عشان اعتذر لك عن سوء

ظني فيك، كنت شايفك بالأمس مُجرد ناقل للزيف زي مُذيعين ياما في قنوات مختلفة، كنت شايفك مُجرد بغبغان تردد من غير فهم او وعي، كنت شايفك أراجوز في عصر الكوميديا السوداء، تخترع نكات عشان نضحك على حالنا بيها.

وشوّش جبريل صديقه في سماعة أذنه بأن يقطع الاتصال وكأن عُطلًا فنيًّا قد حدث في استقبال المُكالمات أو كأن المُتصل قد انتهى من حديثه، لكن نجم قال بصوت مُرتفع أمام كُلِّ المشاهدين:

- لا تقطع هذه المُداخلة يا جبريل.. كمل كلامك يا فندم!

شكره المُتصل على سعة صدره وحُسن تجاوبه، وبنبرة أكثر طمأنينة قال:

- دلوقتي عليت قيمتك في عيني وفي عين كتير من المشاهدين باللي ذكرته ونقلته من الشارع بكل صدق وشفافية، وأطلب من كُل زملائك الإعلاميين أن يستفتوا عقولهم قبل حديثهم، يتكلموا بصوت ونبرة الشعب، ويسمعوا بآذانهم ويشوفوا بعيونهم، ويعيشوا نفس مآسيهم، انا كدا خلصت مُداخلتي لكن ليّا رجاء أخير ليك شخصيا يا أستاذ نجم «**تخلي بالك من نفسك يا ابني**».

قطع جبريل المكالمة هذه المرة، فلم يعد يحتمل سماع أذى قد يلحق بصديق عُمره الوحيد، ثم أكمل نجم:

ـ وبطبيعة الحال، يبقى المواطن هو الضحية والخاسر الأكبر من ظاهرة ارتفاع الأسعار، وهناك إناس لم يروا اللحم إلا في عيد الأضحى؛ إذ إنه يرتفع كباقي السلع من دون أي مُقدمات، وهذا هو حال شارعنا في العاصمة، فما الحال إذًا في قُرى ونجوع مصر وفي الصعيد بشكل عام من صحة وتعليم وسكن وغير ذلك؟!

إليكم، أيها المشاهدون، الفقرة الثالثة والأخيرة من البرنامج، وقد خُصصت هذه الفقرة للتحدث معكم عن «**زينب إبراهيم المصري**»، فتاة كأي فتاة مصرية، أرادت العيش تحت راية الوطن في أمن وأمان وسلام، كبرت وكبرت أحلامها، عملت كما تمنت، لكن ما تمنته لم يدُم طويلًا، صدمها الواقع، أخرس صوتها، قتل شجاعتها، وأد حُريتها.. وجفَّ حبر قلمها، وأُعميت عين كاميرتها، واستشهد أخوها وصديقتها، حتى أنا كُنتُ سببًا في كسر قلبها، منحتني حُبها ومنحتها صفعةً ووجعًا وخيبة، وظلمتها حينما اتهمتها بالجهل وإثارة الفتن.

قطع حديثه أحد ضيوف الحلقة، وسأله مُستفهمًا:

ـ ليه مجبتهاش ضيفة هنا في البرنامج وتتكلم بنفسها عن نفسها؟

أجابه نجم بنبرة ضعيفة:

ـ زينب انتحرت!!

فأصدر هذا الضيف صوتًا مُتأسفًا وكل الحضور داخل القاعة وخلف الكاميرات، انزعجوا لمعرفتهم ان من يتحدث عنها المذيع وخصص الحلقة لأجلها قد ماتت، وأكمل نجم حديثه:

- نعم، انتحرت وشنقت أحلامها وهي في ربيع عُمرها، ولم يتبقَّ منها غير خطاب كتبته بآخر مداد لقلمها، سأقرؤه لكم وأريدكم أن تسمعوه بصوتها كما لو كانت بيننا الآن:

أنا اسمي زينب إبراهيم مواطنة مصرية بسيطة اتولدت واتربيت هنا، أبويا كان دايمًا يقوللي «**امشي جنب الحيط يا زينب**»، سمعت كلامه ومشيت، أبويا كان دايما يقوللي ما تتكلميش لما تلاقي الكُبار بيتكلموا، سمعت كلام أبويا وسكت، أبويا كان بيحاول يزرع جوايا الخوف والجُبن والسكوت وقلة الحيلة وما يعرفش انه زرع جوايا عكس كل دول.

الحيطة اللي كنت ماشيه جنبها مالت، الصغيرة اللي كانت ما تتكلمش وقت كلام الكبار.. كبرت ونطقت، البنت الصغيرة اللي كان فهمها على قدها.. فهمت!!

مشيت بين الناس.. مهمومة بهمومهم، سمعت صوت شكواهم وشوفت في عيونهم كلام كتير مش شبه بعضه لكن كانوا بيسألوا نفس السؤال: «**لحد امتى؟**»

السؤال دا مغزاه على حسب كُل واحد، في اللي مستني يعيش عيشة كريمة أو يموت موته كريمة، وفي اللي مستني

رجـوع حتـة منـه غايبـة، تـرد فيـه الـروح، وفي اللـي مسـتني يلاقي شُـغلانة شـريفة تسـاعده يصرف على اللي معاه، وفي اللي مسـتني يـداوي ابنـه المريـض وبيدعـي ليـل نهـار ان ربنا يشـفيه، وفي اللي مسـتني يخطـب اللي بيحبهـا قبل ما يجي يخطفها منـه اللي يقدر يشـتريها بفلوسـه، وفي اللي مسـتني يعلم ولاده تعليم محترم يزرع فيهـم قيـم مُجتمعـه، وفي اللي مسـتني تذكرة طيران ويمشـي يمكن يلاقـي نفسـه فـي البُعـد، وفـي اللي مسـتني حوافز زيادة على مُرتبة أو مُكافـأة بسـيطة يقـدر يجيـب بيهـا لبس العيد لـولاده، وفي اللي مسـتني نظـرة رأفـة ورحمة ويمكـن مسـاعدة في تمـن علاج يحميه مـن المـوت والمـوت كـدا كـدا جـاي، وفـي اللـي مسـتني يكبّـر مشـروعه الصغيـر اللـي مبقـاش مسـاعده يصـرف على بيتـه، وفـي اللي مسـتني العـدل فـي المرتبـات والأجـور، راتـب المـدرس هنا ولا حاجـة جنـب أي مـدرس فـي أي دولة عربية، وفي اللي مسـتني يصحـى يلاقـي نفسـه في شـارع نضيـف زي الشـوارع التانية بتوع ولاد الأكابر، وفي اللي مسـتني يشـتغل بعد ما اتخرج عشـان يبدأ يخطـي أول سـلمه فـي مشـوار حياتـه، كل دول وغيرهـم مسـتنين.. لكـن للأسـف العُمـر بيجـري ومش بيسـتنى حد!

اللي بيحلم يتجوز اللي بيحبها بيتجوز جواز صالونات عادي لإنه وقتها مكانش يقدر ماديًا انه يرتبط وأول ما قدر لقاها طارت لصاحب نصيبها، واللي كان بيحلم يشتغل حسب تخصصه في الجامعة، اشتغل أي شُغلانة المهم انه اشتغل أصلًا، واللي كان

بيحلم يعلم ولاده في مدارس علام محترم اهو هو اللي بنفسه بيذاكر لهم أو مُدرس خصوصي يقوم بالمهمة، الأحلام اتبدلت أو اتحققت بطريقة تانية تناسب الواقع والحياة والامكانيات.. وكُلها عيشة!!

حكايات كتير عيشتها وسمعتها وشوفتها في عيون الناس، وفي عز ما أنا مهمومة بهمومهم كنت بشوف مشهد جميل، بيتكرر كتير قدامي كل يوم، راجل عجوز اوي وست عجوزة ماسكين ايدين بعض، وبيعدوا سوا الطريق، وأفضل أبص عليهم لحد ما يختفوا عن عينيا وانا فرحانه اوي بيهم، وفي الناحية التانية، بنت وولد واقفين على النيل بيضحكوا من قلبهم وشايفين بُكرة بعيون مُتفائلة وبدعي في سري إنهم يفضلوا مع بعض دايما، الناس في مصر طيبين اوي.. وبرغم الألم لسه صوت الضحكة عالية، وبرغم كُل حاجة، لسه فيها حاجة حلوة!!

أما عن حكاية قلبي.. أول ما عرفت يعني ايه حُب عرفته على ايد نجم الدين كامل، حبيته طول حياتي من طرف واحد، اتمنيت اللحظة اللي يحس بيّا فيها، حاولت كتير انساه وكنت بفتكره اكتر، مع إن كل قناعاته مختلفة تماما عني، ولإني بشوف حقيقة الناس من جوّه، شوفته شبهي.

ولإني فقدت الأمل في كل حاجة في حياتي، ما لقتش غير الانتحار، وسألت نفسي قبل ما أسيب العالم واحط الحبل على

رقبتي: «**ايه الأمنية اللي كان نفسك فيها يا زينب قبل ما تموتي؟**»
وكانت اجابتي:

«**أن أرى الناس سُعداء بلا هموم**».

فرغ «**نجم الدين**» من قراءة الخطاب، وجال بعينيه على أوجه العاملين حوله خلف الكاميرا، فرأى دموعًا مُحبطة وبائسة على من كانت يومًا بينهم ولم يروها أو يسمعوها، وحينما رحلت بهدوء؛ صار وجودها أمنية يرجونها.. مسح «**نجم الدين**» دموعه ثم طلب من مُصوِّر البرنامج على الهواء مُباشرة أن يُقرِّب الكاميرا نحو شاشة جانبية صغيرة يُعرض بها حجرة زينب الخاصة، ملابسها وكُتبها وصورها المُلقاة في كل مكان، وكل لأشيائها الخاصة، واقتربت الكاميرا أكثر نحو أحد الجدران وقد كتبت عليه:

«**لكل منا أسطورة في الحياة، قد تكون صاحب أسطورتك وبطلها الأول، وقد تكون مُجرد فصلٍ بها، وقد تكون لا شيء بالمرة.. نمضي في طريقنا من دون إرادة، وإن أردنا لن نمضي. كل الأشياء بقدرٍ ومقدار، لا تمتلك ما يمتلكه غيرك، لكن حتمًا تمتلك ما لا يمتلكه غيرك. الكمال شيء وهمي، ومنحة إلهية، والنقص يكمن فقط داخلنا**».

وبعدها، تحركت الكاميرا نحو صورة زينب عندما كانت تبتسم في أحد الميادين، تحمل كاميرتها بعينٍ لامعة تعشق تراب وطنها، عين لا تعرف الانكسار أبدًا، عين تتطلَّع نحو الأمل وحياة

أفضل، عين تبحث عن الحق والحُرية والجمال.. وقال مُلتقطًا أنفاسه التعسة كي يُنهي برنامجه:

كُل بداية وليها نهاية، وبكدا نكون وصلنا لآخر جزء في حلقتنا اللي خصصناها لكم عن بطلة مصرية هتفضل حكايتها عايشة مُخلدة في قلب كُل مصري وفي قلبي أنا، تصبحوا على واقع أجمل بكتير!!

توقف بثُّ البرنامج فجأة لأسباب أمنية، لكنه توقَّف في وقته المُناسب عند نهايته، واتصل نجيب صبحي بجبريل من باريس وطلب منه أن يفتح صوت سماعة الهاتف كي يُسمع نجم قوله الثائر:

- أغيب يومين عن القناة، الاقي المهزلة دي في التليفزيون، انتوا الاتنين من دلوقتي مرفودين..

التزم نجم الدين الصمت كالمُغيب، فلم يكترث بهذا القرار، وعقله ما زال يُفكر بما قاله وما حدث في البرنامج وتأثير الحلقة على المشاهدين، يخشى أن يكون قد قصَّر في الوفاء بحق من شغلت فكره، وقلبه قد نما به حُبه لها وبدأ يكبر ويزهر، فما أتعس أن يكون الحُب بلا أمل أو وصال، فكيف لحبيبين من وصلٍ وأحدهما ميت؟!

حاول جبريل أن يُدافع عن عمله وتوسل إلى صاحب نعمته للرجوع عن قراره وألَّا يقطع لُقمة عيشهما، لكن نجيب صُبحي لم يستمع إليه وكان قراره بلا رجعة. هذا «**النجيب**» كان يسير

مع التيار، أينما يكونوا يكُن، وكيفما يقولوا يقُل، يعبد القوانين والالتزام بها، في النهار مستقيم كخط إشارة المرور، وفي الليل عربيد يُعاشر النساء على اختلاف الطعم واللون، يشتري كل ما يتطرق إلى ذهنه بأمواله، أمواله التي تتجدد كما الشمس، يردد دومًا: «**الفلوس بتجيب فلوس**».

ترك نجم الدين القناة بعدما سلَّم على بعض الزملاء وعانق الباقي.. استقل العربة حيث بيت «**زينب**»، طرق الباب، فتحت له يُسر، فقال مُتأسفًا:

ـ آسف يا أمي، موفتش بوعدي ليك برجوع الأجندة لإنها غرقت في البحر.

أخذته يُسر في أحضانها لتشتم به رائحة زينب وقالت:

ـ مفيش داعي للأسف يا نجم.

ـ ليه مقولتيش إنك عرفتيني في المرة الأولى اللي جتلك فيها؟

ـ حبيت أسيبك تعرف مين هي زينب وحكايتها في الدنيا، ولو ما كنتش انت عرفت زينب كويس ما كنتش قولتلك إني عرفتك.

ـ بتكرهيني؟

ـ ازاي أكره حد بنتي عاشت تحبه؟

قبَّل نجم كفَّ يُسر وجبينها ورحل قاصدًا بيته، فوجد حقيبة ملابسه مُلقاة أمام البيت والمفتاح الذي يمتلكه أصبح غير صالح للفتحِ، طرق بابه بعنف، فتحت له الخادمة، اقتحم البيت فوجد زوجتَه تضع طلاء الأَظافر في غُرفتها.. أمسك ما بيديها وسكبه على الأرض، وصاح بنبرة مُرتفعة:

- ازاي الاقي هدومي مرميه قدام البيت وكمان غيرتي مُفتاح الشقة؟

ردت بأعصاب هادئة:

- مالكش عندي حاجة، والبيت وكل حاجة باسمي انا.. ولا نسيت أصلك؟
- بتعايريني يا ناريمان؟
- لا بس بفكرك.. كنت ايه وبقيت ايه، والفضل يرجع ليّا ولبابا، ولا أنت نسيت لما كنت مُدرس فقير مُرتبه بيخلص في يوم واحد في الشهر، لحد ما بقيت أكبر مُذيع في البلد بتقبض مرتب يكفي يعيّش خمس أسر، لكنك ما صونتش النعمة.

قال نادما على أيام قد ولَّت معها:

- فين سلمى بنتي؟
- أنت مُت بالنسبة لها.
- أنا لسه حيّ يا ناريمان.

قالت بضحك وكأنها تسخر:

- حيٌّ يعشق ميتة.. تيجي ازاي دي؟
- كلامك صح وغلط في نفس الوقت، صح لما قولتي «**يعشق**» وغلط عشان قولتي «**ميتة**»، أنا فعلًا بعشق زينب وزينب هتعيش جوايا ومش هتموت أبدًا.
- ليه اتجوزتني؟
- جواز مصالح يا عزيزتي.
- طلقني يا نجم.
- اتأخرتي اوي في طلبك، لإني طلقتك من حياتي من زمان، ودلوقتي يا ناريمان أنتِ طاااالق.

ثُم نظر إلى طلاء أظافرها وقال:

- خلي بالك من بنتنا واعتني بيها زي ما بتاخدي بالك من مظهرك.

ألقى نجم الدين المفتاح القديم للبيت وكذلك مفتاح عربته في وجهها، وتركها؛ فلا حاجة له بعربات العالم كله أو حتى كنز قارون، وشعر حينها أنه أغنى رجل على الأرض بكرامته وكبريائه، فإن تنازل عن كُل شيء، يكفيه شراء نفسه، لقد أُعتق هذه الساعة، وأصبح حُرًّا كريمًا.

سار نجم الدين على قدميه لمسافاتٍ ومسافات، وقطع عشرات من الأميال، حتى وصل إلى قبر زينب، فوجد رجلًا ذا

لحية كثَّة يسير بجانب القبر من خلال مقعدٍ مُتحرك، ربت على كتفه بطمأنينة وسأله:

ـ أنت مين؟

ـ أنا حارس المقابر.

ـ بتعمل ايه؟

ـ بحرس ولادي وأروي الصبَّار.

ـ يبقى أنت إبراهيم المصري؟

ـ وأنت نجم الدين كامل؟

ـ أيوه يا عمي، طمنِّي على زينب؟

ـ زينب الليلة دي فرحانة في قبرها، بص للسما وهتعرف.

نظر نجم الدين إلى أعلى.. وحينها تذكَّر تلك الليلة التي كانت زينب في صُحبته وأشار بيده نحو السماء وقال لها أنا كهذا النجم البعيد، ثُمَّ أخفض عينيه نحو قبرها وقال باكيًا كالأطفال:

ـ أنا هُنا قريب منك يا زينب، نجم السماء جنبك على الأرض.

قال إبراهيم المصري معاتبًا بلا جدوى:

ـ ايه فايدة سقوط النجم على الأرض وزهرة البُستان طلعت في السماء؟!

جاء جبريل مُسرعًا وقطع حديثهما وقال مُلتقطًا أنفاسه بصعوبة:

ـ اهرب يا نجم، صدر أمر بسجنك ومعرفش السبب!!

ـ مش همشي يا جبريل، هفضل هنا مع زينب.

ـ انت اتجننت؟ زينب بقت سراب!

ـ أصعب حاجة انك تحب من طرف واحد، زينب عاشت طول حياتها تحبني من طرفها من غير أمل، وانا دلوقتي عايش بحبها من طرفي ومن غير أمل.

ـ اهرب يا صاحبي بسرعة..

ـ عارف يا جبريل ان زينب قاعده بيننا دلوقتي جسم وروح وكل حاجة، اهو شايفها بتضحك، شايفها معايا؟

كان جبريل يتحدث مع صديقه على الهرب لكن الصديق يتحدث معه عن أشياء لم تكن بالواقع، وكأنه قد غُيب أو ربما قد أصابه جنونًا، لكن الحقيقة التي ستبقى دائما: «**أن زينب ظلت تُحب نجم طوال حياتها وحتى موتها، وأن نجم سيظل يُحب زينب بعد موتها وطوال حياته**».

ذهب الرجل المُسن كي يُكمل ريَّ الصبار، ورحل جبريل إلى حيث أتى بعدما أيقن أن وجوده لا جدوى له، وجلس نجم بجانب قبر زينب حتى الصباح، يغرس يده في ترابه الحنون، يتحدث إليها صامتًا، ويركل باب القبر الحديدي الذي يفصل بينه وبين حبيبته.. وعند الشروق، حضر رجال الأمن إلى المقابر، وتم إلقاء القبض عليه وحبسه على ذمة التحقيق بتُهم مُلفقة، وألقوا به

داخل زنزانة مع الكثيرين غيره، ممن جار عليهم الزمان وحُكامه، وبعد أشهر انتقل إلى زنزانة أخرى بمفرده، لا أنيس له ولا سجين غيره بعد الحُكم عليه بالحبس لأعوام طوال، وظل نجم يطرق باب السجن بقوة ويقول بأعلى صوت له: «**أُحِبكِ زينب**».

اعتذار واجب

حاولت كثيرًا أن أُغيّر في أحداث حياة زينب، ربما لأنني كنت أول من يقسو عليها لكونها بطلة هذه الرواية، لكن القلم أبى والعازف أيضًا.. يعلم الله اني حزنت لأجلها، فكم نهلت من مشاعري وطاقتي، وفي السطور الأخيرة انحنى القلم طوعًا ووافق أن أرد لها جزءً مما تستحق، وسأخبرها اعتذاري حين ألقاها في عالمها، اعتذر لكِ يا طيبة فلقد منحتك حياة لا تستحقيها..

شكر واجب

إلى النجوم التي تطل دومًا عليَّ عبر نافذتي الوحيدة، تُضيء ليلتي بلا مُقابل، تُناجي ربها لأجلي بظهرِ الغيب، هؤلاء من وثقوا بخُطى قلمي الثابتة وآمنوا بمداده.


تشكيل للنشر والتوزيع